وقفات تربوية

مع الصائمين

في رياض السنة

د/ عبد الرحمن عبد الحميد البر
أستاذ الحديث وعلومه المساعد
جامعة الأزهر

الطبعة الأولى ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢م

توزيع
مكتبة عمر
سنبخت ☎ ٤٣٢٩١٦

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ
كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ *
أَيَّاماً مَعدُودَات فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلى
سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ
فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِين فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ
لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ *
شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً
لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَ الْفُرْقَان فَمَنْ
شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً
أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ
بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا
الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ * ﴾ (سورة البقرة ١٨٣ : ١٨٥)

مُقَدِّمَة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه واهتدى بهداه .

اللهم اجعل عملنا كله صالحاً خالصاً متقبَّلاً ، ولا تجعل للشيطان في عملنا حظاً ولا نصيباً ، ووفقنا لما تحب وترضى ، وارزقنا خير الآخرة والأولى ، إنك على كل شيء قدير .

وبعد ؛ فهذه قبساتٌ من مشكاة النبوة في هذا الشهر الكريم ، أردتُ بها أن أضع نفسي وإخواني في دائرة أنوارها المباركة، لنتعرض لنفحات الله في أيام الشهر الفضيل ، عسى أن نتحقق بالتقوى التي هي الغاية الأساسية من هذه الفريضة الكريمة .

لا ريب أن للعبادات في الإسلام أغراضاً تربويةً عالية ، وأنها ليست مجرد تكاليف شكلية فارغة من المضمون .

فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر .

والزكاة تطهر الأموال ، وتزكي النفوس ، وتحقق تكافل الأمة .

والصيام يحقق التقوى ، ويسمو بالنفس عن الشهوات ، ويرتفع بها عن الإخلاد إلى الأرض .

والحج يجرِّد الاعتقاد ويحقق معنى التسليم لله .

ومن ثَمَّ سعى العلماءُ قديماً وحديثاً إلى التعرُّف على الأهداف التربوية للتكاليف الشرعية ، واستنباط الحِكَم من الآيات والأحاديث التي جاءت بها .

وفي هذه الرسالة اليسيرة أعرض لدوْحتين من دَوْحات السنة المباركة التي تناولت فريضة الصيام ، وأقف مع القارئ الكريم بعض الوقفات في هذه الرياض ، نتفيَّأ معاً ظلالها الظليلة ، ونتنسم عبيرها العابق ، ونتشمم أريجها الفواح .

وقد عرضت في هذه الرسالة لحديثين :

أولهما : حديث أبي هريرة ﷺ « **كل عمل ابن آدم له إلا الصيام** » . **والثاني** : حديث ابن عباس ﷺ « كان رسول الله ﷺ أجود الناس » .

وحرصت قبل الدخول في عمق الحديثين على إيراد ترجمة مختصرة للراويين الجليلين ﷺ ، ليلم القارئ الكريم ببعض الجوانب

المضيئة في حياة الصاحبين الجليلين ، فأولهما أكثر الصحابة رواية للحديث ، وثانيهما أكثر الصحابة فتوى ، فضلاً عن كونه أحد السبعة المكثرين من الرواية للحديث .

ثم تعرضت لبعض معاني مفردات كل حديث .

وجعلت عنوان الحديث الأول : **في رياض الصوم** ، وتناولت فيه خمس وقفات على النحو التالي :

الوقفة الأولى : كل عمل ابن آدم له إلا الصيام .

الوقفة الثانية : الصيام جُنَّة .

الوقفة الثالثة : إني صائم .

الوقفة الرابعة : خُلُوف فم الصائم أطيب من المسك .

الوقفة الخامسة : للصائم فرحتان .

وعنونت الحديث الثاني : **الإنفاق والقرآن في رمضان** ، وتناولت فيه أربع وقفات على النحو التالي :

الوقفة الأولى : الجود والسخاء في رمضان .

الوقفة الثانية : أثر رمضان في جوده ﷺ .

الوقفة الثالثة : صور من جود السلف الصالح .

الوقفة الرابعة : القرآن في حياة رسول الله ﷺ والمسلمين .

ثم ختمت الحديث بفوائد متنوعة مما استنبطه العلماء من هذا الحديث الشريف .

وقد أشرت إلى تخريج سائر الأحاديث والآثار التي وردت في هذه الرسالة ، وبينت درجة كل منها في الغالب ، و لم أشأ أن أثقل بها هوامش الرسالة حتى لا أشغل القارئ الكريم بكثرتها ، على أني لم أذكر في هذه الرسالة حديثاً واهياً أو موضوعاً ، وما كان فيها من بعض الضعيف فهو مما يحتمل في مجال الفضائل ، ولا ترده الأصول العامة للشريعة ، وغالباً ما أبين شواهد قبوله .

وأرجو الله سبحانه أن ينفع بهذه الرسالة ، وأن يجعل هذا العمل خالصاً لوجه الكريم ، وأن يجعلنا في هذا الشهر لكريم من المقبولين الفائزين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

كتبه

أبو محمد عبد الرحمن عبد الحميد البر

١

في رياض الصوم

عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **قَالَ اللهُ : كُلُّ عَمَلِ ابنِ آدَمَ لَهُ إلا الصِّيَامَ ، فإنَّهُ لِي ، وأَنَا أَجْزِي به .**

وَالصِّيَامُ جُنَّةٌ ، وَ إِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلا يَرْفُثْ ، وَلا يَصْخَبْ ، فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ فَلْيَقُلْ : إِنِّي امْرُؤٌ صَائِم .

وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ .

لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا : إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ ، وَ إِذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِه » (متفق عليه)

ترجمة راوي الحديث

هو الإمام الفقيه المجتهد الحافظ صاحب رسول الله ﷺ ، أبو هريرة الدوسي اليماني ، سيد الحفاظ الأثبات .

اختلف في اسمه على أقوال جمة أرجحها : عبد الرحمن بن صخر وقيل : ابن غنم .

والمشهور عنه أنه كني بهرة برية كان يحملها ، قال ﷺ : كنت أرعى غنم أهلي ، فكانت لي هريرة صغيرة ، فكنت أضعها بالليل في شجرة ، فإذا كان النهار ذهبت بها معي ، فلعبتُ بها ، فكنَّوْني أبا هريرة (أخرجه الترمذي وقال : حسن غريب) .

حمل عن النبيﷺ علماً كثيراً طيباً مباركاً فيه لم يُلْحَق في كثرته ، وعن أُبَيٍّ وأبي بكر وعمر وغيرهم رضي الله عنهم .

حدث عنه خلقٌ كثيرٌ من الصحابة والتابعين ، قال البخاري : روى عنه ثمانمائة أو أكثر .

إسلامه وصحبته :كان مقدمه وإسلامه في أول سنة سبع عام خيبر . روى قيسُ بنُ أبي حازم عنه قال : جئتُ يوم خيبر بعد ما فرغوا من القتال (سير النبلاء)

وقال حميد بن عبد الرحمن : صحب أبو هريرة النبي ﷺ أربـــع سنين (أخرجه ابن سعد بسند صحيح) .

وهذا صحيح فمن فتح خيبر إلى الوفاة النبوية أربع سنين وليال .

حب المؤمنين لأبي هريرة : قال أبو هريرة ﷺ : والله ما خلـــق الله مؤمناً يسمع بي و لا يراني إلا أحبني . قيل : وما علمك بذلك يـا أبا هريرة ؟ قال : إن أمي كانت امرأةً مشركةً ، و إني كنت أدعوهـا إلى الإسلام ، وكانت تأبى عليَّ ، فدعوتها يوماً ، فأسمعتني في رســول الله ﷺ ما أكره ، فأتيتُ رسولَ الله ﷺ وأنا أبكي ، فقلـــت : يــا رسول الله ، إني كنت أدعو أمي إلى الإسلام ، و كانت تأبى علـــيَّ ، و إني دعوتُها اليوم ، فأسمعتني فيك ما أكره ، فادعُ الله أن يـــهدي أمَّ أبي هريرة . فقال رسول الله ﷺ : « **اللهم اهدِ أمَّ أبي هريـــــرة** » . فخرجتُ أعدو أبشِّرُها بدعاء رسول الله ﷺ ، فلما أتيتُ البـــاب إذا هو مُجَافٌ (أي مغلق) ، وسمعتُ خضخضة الماء ، وسمعَتْ خشْـفَ رجليّ — يعني وقعهما — فقالت : يا أبا هريرة ، كما أنـــت . ثم فتحَتْ الباب ، وقد لبستْ درعَها ، وعَجِلَتْ عن خمارها ، فقـالت : إني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله . فرجعـــتُ إلى رسول الله ﷺ أبكي من الفرح كما بكيتُ من الحزن ، فقلت : يـــا

رسول الله ، أبشر ، فقد استجاب الله دعاءَك ، و قد هـدى أمَّ أبي هريرة ، فقلتُ : يا رسول الله ، ادْعُ الله أن يُحبِّبَني أنـا وأمـي إلى عباده المؤمنين ، و يحبِّبَهم إلينا . فقال رسول الله ﷺ: « **اللهم حبِّبْ عُبَيْدَك هذا وأمَّه إلى عبادك المؤمنين ، وحبِّبْهم إليهما** » .

فما خلق الله مؤمنا يسمع بي و لا يراني ، أو يرى أمي إلا و هو يحبني (أخرجه أحمد ومسلم والبخاري في الأدب المفرد) .

حفظـه للحديث : كان حفظ أبي هريرة الخارق معجزة مـن معجزات النبي ﷺ ، حيث دعا ﷺ له بالحفظ و البركة .

فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « **ألا تسألـني مـن هذه الغنائم التي يسألـني أصحابُك ؟** » فقلت : أسألك أن تُعَلِّمـني مما علَّمك الله . فنـزعتُ نَمِرَةً كانت على ظهري ، فبسطتُها بيـني وبينه ، حتى كأني أنظر إلى النمل يدِبُّ عليها ، فحدثني ، حـتى إذا استوعبتُ حديثه قال : « **اجمعها فصُرْها إليك** » فأصبحتُ لا أسـقط حرفاً مما حدثني (أخرجه أبو نعيم في الحلية وذكره الذهبي في السير) .

رد أبي هريرة ﷺ على من اتـهموه بكثرة الرواية :

لما استغرب الناسُ كثرةَ حديثه بالنسبة لكثيرٍ من الصحابة ، مـع قِصَر مدة صحبته بيَّن لهم سببَ كثرةِ روايته : فعن سعيد وأبي سـلمة

أن أبا هريرة ﷺ قال : إنكم تقولون : إن أبا هريرة يكثر الحديـــــث عن رسول الله ﷺ، وتقولون : ما بـــالُ المـــهاجرين والأنصـــار لا يحدِّثون عن رسول الله ﷺ بمثل حديث أبي هريرة ؟!

وإن إخوتي من المهاجرين كان يشغلهم الصَّفْقُ بالأســـــواق ، و كنتُ ألزم رسول الله ﷺ على مِلْءِ بطني ، فأشـــــهد إذا غـــابوا ، و أحفظ إذا نسوا .

وكان يشغل إخوتي من الأنصار عملُ أموالهم ، وكنت امــــرءاً مسكيناً من مساكين الصُّفَّة ، أَعِي حين ينسَوْن .

وقد قال رسول الله ﷺ في حديث يحدثه : « **إنه لن يبســـــطَ أحدٌ ثوبَه حتى أقضيَ مقالتي هذه ، ثم يجمع إليه ثوبَه إلا وَعَى مـــا أقول** » .

فبسطتُ نَمِرَةً عليَّ حتى إذا قضى رسول اللهﷺ مقالتَه جمعتُها إلى صدري ، فما نسيتُ من مقالة رسول اللهﷺ تلك من شيء (متفـــق عليه) .

وقال ﷺ : قلت : يا رسول الله ، إني أسمع منك حديثـــاً كثـــيراً أنساه . قال : « **ابسُط رداءَك** » ، فبسطتُه . قال : فغرف بيــده ، ثم قال : « **ضُمَّه** » فضَممتُه ، فما نسيتُ شيئاً بعده (أخرجه البخاري) .

و عن أبي الزعيزعة كاتب مروان بن الحكم : أن مروان أرسل إلى أبي هريرة ﷺ ، فجعل يسأله ، وأجلسني خلف السرير وأنا أكتب ، حتى إذا كان رأس الحول دعا به ، فأقعده من وراء الحجاب فجعل يسأله عن ذلك الكتاب ، فما زاد ولا نقص ، ولا قدَّم ولا أخَّر (صححه الحاكم ووافقه الذهبي ، وفيه ضعف ، أبو الزعيزعة لا يعرف)

قال الذهبي في السير: هكذا فليكن الحفظ .

قال الشافعي : أبو هريرة أحفظ من روى الحديث في دهره .

و عن مكحول قال : تواعد الناس ليلة إلى قبة من قباب معاوية فاجتمعوا فيها ، فقام فيهم أبو هريرة يحدثهم عن رسول الله ﷺ حتى أصبح (ذكره الذهبي في السير) .

وقال له ابن عمر ﷺ : كنتَ ألزمَنا لرسول الله ﷺ ، وأعلمَنا بحديثه (أخرجه الترمذي وحسنه ، وصححه الحاكم) .

ودخل أبو هريرة على عائشة فقالت له : يا أبا هريرة ، ما هذه الأحاديث التي تبلغنا أنك تحدث بها عن النبي ﷺ ، هل سمعتَ إلا ما سمعنا ، وهل رأيتَ إلا ما رأينا ؟ قال : يا أماه ، إنه كان يشغلك عن رسول الله ﷺ المرآة و المُكْحُلة و التصنُّع لرسول الله ﷺ ، وإني والله ما كان يشغلني عنه شيء (صححه الحاكم ووافقه الذهبي) .

وقد اعترف له كبار الصحابة بذلك ، فقد جاء رجل إلى طلحة ابن عبيد الله ﷺ ، فقال : يا أبا محمد ، أرأيتَ هذا اليمانيَّ - يعني أبا هريرة - هو أعلم بحديث رسول الله ﷺ منكم ؟ نسمع منه ما لا نسمع منكم ! قال : أما أن يكون سمعَ من رسول الله ﷺ ما لم نسمع فلا أشك إلا أنه سمع من رسول الله ﷺ ما لم نسمع ، وذلك أنه كان مسكيناً لا شيءَ له ، ضيفاً لرسول الله ﷺ ، يده مع يد رسول الله ﷺ ، وكُنّا نحن أهلَ بيوتات وغنى ، وكنا نأتي رسولَ الله ﷺ طرفي النهار ، فلا نشك إلا أنه سمع ما لم نسمع ، ولا تجد أحداً فيه خيرٌ يقول على رسول الله ﷺ ما لم يقل (أخرجه الترمذي وحسنه وصححه الحاكم ووافقه الذهبي) .

وقد ذهب بعض العلماء إلى أن أصح الأسانيد : ما جاء من طريق الزهري ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبي هريرة .

فقه أبي هريرة و معرفته بأصول الرواية : كان أبو هريرة ﷺ يراعي طبيعةَ مَنْ يحدثهم ، ولا يحدِّثُ الناسَ بما لا تحتملُه عقولُهم أو بما يكون التحديثُ به مثارَ فتنة ، ما دام ذلك ليس من أصول الدين ، أو من أمور الحلال و الحرام ، وذلك من تمام فقهه وحكمته ﷺ .

و لذلك قال : حفظتُ من رسول الله ﷺ وعاءين ، فأما أحدُهما فبَثَثْتُه ، وأما الآخرُ فلو بثثته لقُطِع هذا البلعوم (أخرجه البخاري)

قال الذهبي : « هذا دالٌّ على جواز كتمان بعض الأحاديث التي تحرك فتنةً في الأصول أو الفروع أو المدح والذم ، أما حديثٌ يتعلق بحلٍّ أو حرامٍ فلا يحلُّ كتمانُه بوجهٍ ، فإنه من البينات والهدى ، وفي صحيح البخاري قول الإمام علي : « حدِّثوا الناسَ بما يعرفون ، ودعوا ما ينكرون . أتحبون أن يُكَذَّب اللهُ ورسولُه ﷺ ؟ » . وكذا لو بثَّ أبو هريرة ذلك الوعاء لأُوذي ، بل لَقُتِل ، ولكن العالم قد يؤديه اجتهادُه إلى أن ينشرَ الحديثَ الفلانيَّ إحياءً للسنة ، فله ما نوى وله أجر وإن غلط في اجتهاده » .

ورعه وزهده في الإمارة : عن محمد بن سيرين : أن عمر ﷺ استعمل أبا هريرة ﷺ على البحرين ، فقدم بعشرة آلاف ، فقال له عمر : استأثرتَ بهذه الأموال يا عدوَّ الله وعدوَّ كتابه ! فقال أبو هريرة : فقلت : لستُ بعدوِّ الله وعدوِّ كتابه ، ولكني عدوُّ مَنْ عاداهما . قال : فمن أين هي لك ؟ قلت : خيلٌ نَتَجَتْ ، وغَلَّةُ رقيقٍ لي ، وأَعْطِيةٌ تتابعتْ . فنظروا فوجدوه كما قال .

فلما كان بعد ذلك دعاه عمر ؛ ليُوَلِّيَه ، فأبَى ، فقال : تكـــره العمل وقد طلب العمل مَنْ كان خيراً منك ، يوسفُ عليه الســلام ؟ فقال : يوسف نبيٌّ ابنُ نبيٍّ ابنِ نبيٍّ ، وأنا أبو هريرة ابن أميمـــة ، و أخشى ثلاثاً واثنتين . قال : فهلا قلتَ خمسا ؟ قال : أخشى أن أقولَ بغير علمٍ ، وأقضيَ بغير حكمٍ ، وأن يُضْرَبَ ظهري ، ويُنْتَزَعَ مـالي ، ويُشْتَمَ عرضي (أخرجه ابن سعد بسند صحيح) .

وفــــاته : مات سنة تسع وخمسين وله ثمان وسبعون ســـنة ، وقيل ك سنة ثمان وخمسين .

ودفن بالبقيع ﷺ .

عــدد أحاديثه : يعد أبو هريرة ﷺ أكـــثر الصحابــة روايــة للحديث ، له في مسند بقي بن مخلد : خمسة آلاف وثلاثمائة وأربعـــة وسبعون حديثا (٥٣٧٤) ، المتفق عليه منها عند البخاري ومســلم : ثلاثمائة وستة وعشرون (٣٢٦) ، وانفرد البخاري بثلاثة وتســـعين حديثا (٩٣) ، ومسلم بثمانية وتسعين حديثا (٩٨) .

و له في مسند الإمام أحمد : ثلاثة آلاف و ثمانمائـــة و ســبعون حديثا (٣٨٧٠) .

رضي الله عن أبي هريرة و أرضاه ، و جزاه خير الجزاء على مـــا حفظ من سنة رسول الله ﷺ ، و على ما قدم لدينه و أمته ، إنــه وليُّ ذلك و القادر عليه .

معاني المفردات

الصيام جنة : **الجُنَّة** بضم الجيم : الوقاية . والجمع : جُنَن . قال ابن الأثير : أي يقي صاحبه ما يؤذيه من الشهوات

وقال النووي : معناه سترة ومانع من الرفث والآثام ، ومانع أيضا من النار .

فلا يرفُث : بضم الفاء و كسرها ، من الرَّفَث محركة : وهو الجماع و الفُحش ، كالرُّفوث ، و كلام النساء في الجماع ، أو ما وُوجهْن به من الفحش . قال الأزهري : الرفَث كلمة جامعة لكل ما يريده الرجل من المرأة . وقال ابن حجر : و المراد بالرفث هنا : الكلام الفاحش ، و هو يطلق على هذا ، و على الجماع ، و على مقدماته ، و على ذكره مع النساء ، أو مطلقا ، و يحتمل أن يكون لما هو أعم منها .

ولا يصْخَب : في بعض روايات الحديث : « **ولا يسْخب** » بالسين بدل الصاد ، والمعنى واحد ، وهو الصياح وشدة الصوت ، وقد جاء في رواية عند مسلم : « **ولا يجهل** » قال النووي : و الجهل

قريب من الرفث ، و هو خلاف الحكمة ، و خلاف الصواب من القول و الفعل .

فإن سابَّه : في رواية « **قاتله أو شاتمه** » يعني تعرض لشتمه ، أو أراد مقاتلته ، أو نازعه ودافعه .

لَخُلُوف فم الصائم : في رواية « **لَخُلْفة** » بضم الخاء ، وهو تغير رائحة الفم . وأكثر ذلك في آخر النهار ، وفي شدة الحرارة . والصواب فيه ضم الخاء و بعض الرواة يرويه بفتحها ، وهو خطأ .

الوقـــفة الأولى

كل عمل ابن آدم له إلا الصيام

جاء في بعض روايات الحديث : « **يترك طعامـــــَه وشرابـــَه وشهوتـــَه من أجلي ، الصيام لي ، و أنا أجزي به ، والحسنة بعشر أمثالها** » .

وفي رواية : « **كلُّ عمل ابن آدم يضاعـــَف : الحسنةُ بعشـــــر أمثالها إلى سبعمائة ضِعف ، قال الله تعالى : إلا الصومَ ، فإنـــه لي ، وأنا أجزي به ، يدَع شهوتَه و طعامَه من أجلي** » .

و في رواية عند ابن خزيمة: « **كلُّ عمل بن آدم لـــه ، الحســـنةُ بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، قال الله : إلا الصيامَ فهو لي وأنـا أجزي به ، يدَعُ الطعامَ من أجلي ، ويدَعُ الشرابَ مـــن أجلـــي ، ويدَعُ لذَّته من أجلي ، ويدَعُ زوجتَه من أجلي** » .

و في رواية : « **قال ربكم عز و جل : عبدي ترك شـــــهوتَه و طعامَه و شرابَه ابتغاء مرضاتِي ، و الصوم لي ، و أنا أجزي به** » .

توقفت عند هذا القول القدسي الكريم ، وتأملتُ سرَّ اختصـــاص المولى عز وجل عبادةَ الصوم بأنها له ، وأنه يجزي بها ، مع أنَّ المعلـــوم

أنَّ سائرَ أعمال المسلم إنما هي لله عز وجل وجزاءَهـــا منه سبحانه ؟ ووجدتُ أنَّ العلماء من سلفنا الصالح رحمهم الله قد شغلهم نفـــــسُ هذا الخاطر ، وتساءلوا نفسَ التساؤل ، وأخذوا يستنبطون الحكمــــةَ من وراء ذلك ، فخرجوا بدررٍ من التوجيهات و الأجوبة ، أنـــشرها بين يدي إخواني ، عسى أن تكون فيها الفائدة :

١ـــ قال بعضـــهم : السبب هو أنَّ الصومَ بعيدٌ عـــن الريـــاء ؛ لخفائه ، بخلاف الصلاة والغزو والصدقة وغيرهـــا مـــن العبـــادات الظاهرة ؛ إذ لا يعلم الناسُ حقيقةَ كون فلانٍ صائماً أو غيرَ صـــائم ؛ لاحتمال أن يُظهر أمامهم الصيام ، فإذا غاب عنهم تناول المفطرات ، وعلى هذا فالعالم بحقيقة الصوم هو الله عز وجل وحده ؛ لأنه المحيـــط بحركات العبد وسكناته .

وإلى ذلك مال أبو عبيد رحمه الله في غريبه ، حيـــث رأى أنـــه خص الصيام لأنه ليس مما يظهر من ابن آدم بفعله ، وإنما هو شيء في القلب .

ويؤيد ذلك : ما جاء عن النبي ﷺ: « **الصوم لا رياءَ فيه ، قـــال الله : هو لي ، وأنا أجزي به** » (أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن ابـن

شهاب عن النبي ﷺ مرسلاً ، وعنه عن أبي سلمة عن أبي هريرة موصولاً ، وفي سنده ضعف) .

ومما يؤيد هذا التوجيه أيضا : ما جاء في الروايات المختلفة المذكورة أعلاه من تعليل ذلك بأن الصائم يَدَع طعامَه وشرابَه وشهوتَه ولذتَه وزوجتَه وسرورَه من أجل الله و ابتغاء مرضاته .

وممن مال إلى هذا التوجيه : أبو العباس القرطبيُّ ، وابنُ الجوزي ، والمازريُّ ، و قوّاه ابنُ حجر ، و السيوطي .

قال ابن حجر : « معنى النفي في قوله « **لا رياء في الصوم** » : أنه لا يدخله الرياء بفعله ، وإن كان قد يدخله الرياء بالقول ، كمن يصوم ثم يخبر بأنه صائم ، فقد يدخله الرياء من هذه الحيثية ، فدخول الرياء في الصوم إنما يقع من جهة الإخبار ، بخلاف بقية الأعمال ، فإن الرياء قد يدخلها بمجرد فعلها » .

٢ ـ وقال بعضهم : معنى قوله سبحانه : « **الصوم لي وأنا أجزي به** » : أنا المنفرد بعلم مقدار ثوابه ، أو تضعيف حسناته ، أما غيره من العبادات فقد أظهر سبحانه بعض مخلوقاته على مقدار ثوابها وأنها تضاعف من عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما شاء الله ، إلا الصيام فإنه يثيب عليه من غير تقدير .

ومما يؤيد هذا التوجيه : ما جاء في رواية مالك : " **كل عمل ابن آدم يضاعف ، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما شاء الله . قال الله : إلا الصوم ، فإنه لي ، و أنا أجزي به** " أي أجازي عليه جزاءً كثيراً من غير تعيين لمقداره ، و هذا كقوله تعالى **﴿ إنما يُوَفَّى الصابرون أجرَهم بغير حساب ﴾** .

والصابرون : الصائمون ، في أكثر الأقوال .

قال ابن عبد البر في التمهيد : " والصوم في لسان العرب أيضا : الصبر ؛ لأنه حبس النفس عن المطاعم والمشارب والمناكح والشهوات . ومن الدليل على أن الصوم يسمى صبراً قوله ﷺ : " **من صام شهر الصبر وثلاثة أيام من كل شهر فكأنه صام الدهر** " (عن أبي هريرة أخرجه أحمد والنسائي بسند صحيح) يعني بشهر الصبر شهر رمضان " .

كما يؤيد هذا التوجيهَ : العرفُ المستفادُ من قوله "أنا أجزي به" لأن الكريم إذا قال : أنا أتولى الإعطاء بنفسي كان في ذلك إشارة إلى تعظيم ذلك العطاء وتفخيمه

٣ ــ وقال بعضهم : المعنى أنه أحب العبادات إليَّ ، والمقدَّم عندي . قال ابن عبد البر : « كفى بقوله « **الصوم لي** » فضلاً للصيام على سائر العبادات » .

ولكن جمهور العلماء على تقديم الصلاة على الصيام ، و هو ما تشهد له النصوص الصحيحة الكثيرة .

٤ ــ وقال بعضهم : الإضافة هنا إضافة تشريف وتعظيم ، كما في قوله تعالى **﴿ ناقة الله ﴾** ، وكما يقال : بيت الله ، ونحو ذلك ، مع أن العالم كله لله سبحانه ، وذلك لأن التخصيص في موضع التعميم في مثل هذا السياق لا يفهم منه إلا التعظيم والتشريف

٥ ــ وقال بعضهم : إن الاستغناء عن الطعام والشراب من صفات الله تعالى ، فهو الصَّمَد ، فالصائم يشابه الحق سبحانه في شيءٍ من هذه الصفة ، وإن كانت صفاتُ الله لا يشبهها شيءٌ من صفات المخلوقين ، فلما تقرَّب الصائمُ إليه سبحانه بما يوافق صفاتِه أضافه إليه .

قال الشيخ عبد الرؤوف المناوي : « واعلم أن الصوم من أخص أوصاف الربوبية ، إذْ لا يتصف به على الكمال إلا الله ، فإنه يُطْعِم

ولا يُطْعَم ، فإضافته إلى نفسه بقوله « **وأنا أجزي بـــه** » لكونـــه لا يتَّصف به أحدٌ على الحقيقة إلا هو ، لأنه الغنيُّ عـــن الأكـــل أبـــد الآبدين ، ومَنْ سواه لا بدَّ له منه ، حتى الملائكة فإن طعامَهم التسبيحُ والأذكارُ ، وشرابَهم المحبةُ الخالصةُ والمعارفُ والعلومُ الصافيـــةُ مـــن الأكدار ، ومَنْ عداهم طعامُهم وشرابُهم ما يليق بهم في دار الدنيـــا وكل دار ، وقد دعا الباري إلى الاتصاف بأوصافه ، وتعبَّدهـــم بهـــا بقدر الطاقة ، والصومُ من أخصِها و أصعبِ الأشياء على النفـــوس ؛ لكونه خلافَ ما جُبِلوا عليه ، لِما أنَّ وجودَهم لا يقوم إلا بمـــادةٍ ، بخلاف الصوم ، فلهذا اختلف عن كل شيء » .

٦ — **و قال بعضـــهم** : المعنى أن الصوم خالصٌ لله ، وليـــس للعبد فيه حظٌّ ، بخلاف غيره ، فإن له فيه حظاً لثناء النـــاس عليـــه لعبادته . قاله ابن الجوزي . وهذا التوجيه من جنس التوجيه الأول .

٧ — **وقال بعضـــهم** : معناه أن الصوم لي لا لـــك ، أي أنـــا الذي ينبغي لي أن لا أَطْعَمَ ولا أشربَ ، وإذا كان كذلـــك وكـــان دخولك فيه لأني شرعتُه لك فأنا أجزي به .كأنه يقول : أنا جزاؤه ؛ لأن صفة التنـــزُّه عن الطعام والشراب والشهوة تطلبني وقد تلبســـتَ بها ، وليست لك ، لكنك اتصفتَ بها حال صومك ، فهي تدخلـــك

عليَّ ، فإن الصبر حبس النفس ، وقد حبستَها بأمري عما تقتضيه حقيقتُها من الطعام والشراب والشهوة طاعةً (ذكره الزرقاني) .

وهذا التوجيه قريب من التوجيه الخامس .

٨ ــ و قال بعضهم : سبب إضافة الصوم بالذات إلى الله سبحانه وتعالى : أنه لم يُعبَد أحدٌ غيرُ الله تعالى بالصوم ، فلم يُعظِّم الكفارُ في عصرٍ من العصور معبوداً لهم بالصيام ، وإن كانوا يعظّمونه بصورة الصلاة والسجود والصدقة والذكر وغير ذلك .

٩ ــ أما ألطف ما قرأت في معنى هذا الحديث القدسي الكريم : فهو ما رواه أيوب بن حسان الواسطي ، أنه سمع رجلاً يسأل الإمامَ الجليلَ سفيانَ بنَ عُيَيْنة رحمه الله عن هذا الحديث ، فقال رحمه الله : « هذا من أجود الأحاديث و أحكمها ، إذا كان يوم القيامة يُحاسِبُ اللهُ عزَّ وجل عبدَه ، ويُؤَدِّي ما عليه من المظالم من سائر عمله ، حتى لا يبقى إلا الصومُ ، فيتحمَّل اللهُ ما بقي عليه من المظالم ، ويدخله بالصوم الجنة » .(أخرجه البيهقي) .

أي أن الحق سبحانه لا يجعل للعباد حقاً في الحسنات التي اكتسبها العبدُ بالصيام ، وذلك يوم القصاص بين يديه ، حين يُؤخَذ من حسنات الظالم ويُعطَى المظلوم ، ويُؤخَذ من سيئات المظلوم

ويُحمَل على الظالم . ويؤيد ذلك : الحديث القدسي : « **لكلّ عملٍ كفارة ، والصومُ لي وأنا أجزي به ...** » .

وفي لفظ : « **يقول ربكم تبارك وتعالى : كل العمل كفارة إلا الصوم ، هو لي وأنا أجزي به** » (أخرجه البخاري وأحمد) .

وإذا كانت بعض الأحاديث قد ذكرت أن الصيام يكفّر بعضَ المعاصي ، فقد جمع الحافظ ابنُ حجر بينها و بين هذا الحديث باحتمال أن يكون المراد بقوله : « **كلُّ العمل كفارة إلا الصوم** » أن الصومَ كفارة ، وزيادة ثواب على الكفارة .

فما أعظمَ فضلَ الله تعالى ! وما أجزلَ ثوابَه للصائمين ! .

١٠ — و قال بعضهم : معناه والله أعلم : أن الصومَ لا يظهرُ من ابن آدم في قولٍ و لا عملٍ ، وإنما هو نيةٌ ينطوي عليها صاحبُها ، ولا يعلمُها إلا اللهُ ، وليست مما تظهرُ فتكتبُها الحَفَظَةُ ، كما تكتبُ الذكرَ والصلاةَ و الصدقةَ و سائرَ الأعمال ، لأنَّ الصومَ في الشريعة ليس بالإمساك عن الطعام والشراب ، لأنَّ كلَّ مُمسكٍ عن الطعام والشراب إذا لم يَنْوِ بذلك وجهَ الله ، و لم يُرِدْ أداءَ فرضه أو التطوعَ لله به ، فليس بصائمٍ في الشريعة ، فلهذا ما قلنا : إنه لا تطّلِعُ عليه

الحَفَظَةُ ولا تكتبُـــه ، ولكنَّ اللهَ يعلمُه ويجازي به على ما شاء مـــن التضعيف . (قاله ابن عبد البر في التمهيد) .

قال الحكيم الترمذي في نوادر الأصول : « إنما صــــار ــ يعــني الصوم ــ مختصاً من بين الأعمال بأن نسبه إلى نفسه الكريمـــة ، وإن كانت الأعمالُ كلُّها لله تعالى ؛ لأنَّ الصومَ ليس بعمل الأركـــــان ، ويقع سراً فيما بينه وبين ربه سبحانه وتعالى ، والحَفَظَةُ لا تعلمُ ذلك ولا تطَّلِعُ عليه ، وخفي عليه جزاؤه ومقدارُ ثوابه ، فولي الله تعــــالى ذلك لعبده ؛ لأنه كلما تردَّدَتْ شهوةٌ تجدَّدَتْ للعبد عَزْمــــةٌ علـــى الثبات ، فله بكل عَزْمَةٍ ثوابٌ جديد » .

وقال أيضا : « فإذا صام رمضان إيماناً بما كتبه الله عليه ، وبأنـــه يطلع عليه في عَزْمِه وردّ شهواته في ساعات يومه ، فذاك كلُّه إيمـــانٌ يتجدَّد عليه في كلّ ساعةٍ ، وهو سرٌّ بينه وبين ربه ، لا يطلعُ عليـــه ملَكٌ مُقَرَّبٌ ، ولا نـــبيٌّ مُرْسَل ، ولذلك قال : الصوم لي وأنا أجزي به » .

و قد ذكر ابنُ حجر أنَّ أقربَ التوجيهات إلى الصـــواب : الأولُ و الثاني ، و يقربُ منهما الثامنُ و التاسع .

قلت : لكل توجيه مما سبق وجه مقبول بفضل الله ، وعطـاء الله أوسع وأعظم من كل تصور ، وإن كان ما قدموه من الأقوال أقـوى من غيره ، و الله أعلم .

ثم أختم هذه الوقفة بما قاله بعض العلماء : معنى الحديـث : أن الحق سبحانه هو الذي يتولى مكافأة الصائم على صيامه ، وهذا دليـل على عظم فضل الصوم وكثرة ثوابه ؛ لأن الكريم إذا أخبر بأنه يتـولى بنفسه الجزاء اقتضى ذلك عظم قدر الجزاء و سعة العطاء .

قال القاضي عياض : ثواب الصوم لا يقدر قـدره ، ولا يقـدر على إحصائه إلا الله ، فلذلك يتولى جزاءه بنفسه ، ولا يكلـه إلى ملائكته .

والموجب لاختصاص الصوم بهذا الفضل أمران : أحدهمـا : أن جميع العبادة مما يطلع عليه العباد ، والصوم سر بين الصائم وبـين الله تعالى ، يفعله العبد خالصا لوجه الله ، ويعاملـه به طالبا لرضاه .

الثاني : أن جميع الحسنات راجعة إلى صرف المال أو اسـتعمال البدن فيما فيه رضاه ، والصوم يتضمن كسر النفس وتعريض البـدن للنقص والتحول ، مع ما فيه من الصبر على مضض الجوع و العطـش فهو يمنع من ملاذ النفس و شهواتها ما لا تمنع منه سائر العبادات .

وقد اتفق العلماء على أن الصوم المراد في الحديث هو ما سلم من المعاصي قولاً وفعلاً ، ووقع خالصاً سالماً من الرياء والشوائب .

فأبشروا إخواني الصائمين بعظيم فضل الله عليكم ، واقبلوا عطاءَ الله لكم ، واهنؤوا بما خصَّكم الله به من كريم المعاملة ، وأحسنوا في هذه المعاملة الخاصة ، وأخلصوا فيها ، عسى الله أن يكتب لنا ولكم تمام القبول والتوفيق .



الوقـــفة الثانية

الصيـــام جُنَّـــة

الجُـــنَّة : الوقاية ، والحديث الشريف لم يحدد وقاية من ماذا ؟

و قد نظر علماء السلف نظر الناقد البصير ، واجتهدوا في بيـــان المقصود بهذه الكلمة الجامعة ، فأتوا بغرر من الفوائـــد ، هـــا أنـــذا أزفُّـــها إليك أخي الكريم .

قال بعض العلماء : معنى الحديث : أن الصيام وقايةٌ وحِصـــنٌ من الوقوع في المعاصي ، بمعنى أنه أَدْعَى للتوبة والطاعة والانقياد لمـــا يحبه الله ويرضاه ، وواقٍ لصاحبه مما يؤذيه من الشهوات ، ومانعٌ مـــن الرَّفَث والآثام ، ولهذا قال ﷺ مبيناً أثـــرَ الصوم الذي ينبغي أن يظهرَ على الصائم : « **فإذا كان يوم صوم أحدكم فـــلا يَرْفُـــثْ ، ولا يَصْخَبْ ، فإن سابَّه أحدٌ أو قاتله فليقل : إني امرؤٌ صـــائم**» . وفي رواية : « **فليقل : إني صائم إني صائم** » . وكأن الصـــوم يرتقـــي بالجانب الروحيِّ والأخلاقيِّ للصائم ، فيقيه ويمنعُـــه من ممارسة شيءٍ

من الأقوال أو الأفعال غيرِ اللائقة ، وإن اعتدى غيرُه عليه أو استفزه بقوله أو بفعله .

ويؤيد ذلك أن الشارع جعل الصيامَ علاجاً لمن تاقت نفسُه إلى الزواج و لم يستطع الباءة ، لأنه يَكْسِرُ الشهوةَ و يُضْعِفُها ، فقال ﷺ : « **من استطاع الباءةَ فلْيَتزَوَّجْ ، فإنه أغضُّ للبصرِ وأحصنُ للفرجِ ، ومن لم يستطعْ فعليه بالصوم فإنه له وِجَاء** » (متفق عليه عن ابن مسعود) .

فكأنَّ الصومَ حجابٌ بين الصائم وبين شهوتِه ؛ لأنه يَكْسِرُ الشهوةَ و يُضْعِفُ القوةَ .

ولذا قيل : إنه لجامُ المتقين ، وجُنَّةُ المحاربين ، ورياضةُ الأبرار والمقرَّبين .

وقال بعضهم : الصيام جُنَّة : أي وقايةٌ ومانعٌ من النار ، وقد ورد ذلك صريحاً في رواية أحمد والترمذي و غيرهما ، حيث قالﷺ : « **الصوم جُنة من النار** » .

ويؤيد ذلك قولهﷺ : « **ألصيام جُنَّةٌ وحصنٌ حصينٌ من النار** » (أخرجه أحمد بسند حسن عن أبي هريرة) .

وقوله ﷺ : « **قال ربنا عز وجل : الصيام جُنَّة يستجنُ** (أي يستتر) **بها العبدُ من النار ، هو لي ، وأنا أجزي به** » (أخرجه أحمد بسند حسن عن جابر) .

وقوله ﷺ أيضا : « **الصيام جُنَّة من النار كجُنَّة أحدكم من القتال** » (عن عثمان بن أبي العاص أخرجه أحمد و النسائي وابن ماجه وصححه ابن خزيمة وابن حبان) .

وقوله ﷺ : « **من صام يوماً في سبيل الله بعَّد اللهُ وجهَه عن النار سبعين خريفا** » أي سبعين سنة (متفق عليه عن أبي سعيد الخدري) .

والأحاديثُ في هذا المعنى كثيرةٌ مشهورة . وبهذا جزم ابنُ عبد البر رحمه الله فقال : « والجُنَّةُ : الوقايةُ والستر من النار ، وحسبُك بهذا فضلاً للصائم » .

وكنت أقول : **ما المانع أن يراد بالحديث كلا المعنيين ؟**

فمَنْ كان الصومُ في الدنيا جُنَّةً له من المعاصي كان في الآخرة جُنَّةً له من النار ، ومن لم يكن له جُنَّةً في الدنيا من المعاصي لم يكن له جُنَّةً في الآخرة من النار.

ثم رأيت الإمامَ النوويَّ وغيرَه جزموا بذلك ، ورأيت الحافظَ أبا العباس القرطبيَّ رحمه الله يقول كلاماً ماتعاً رائعاً ، فيقول فيما نقله

عنه الحافظ ابن حجر رحمه الله : « **جنـــّة** : أي سترة ، يعني **بحســـب مشروعيته** : فينبغي للصائم أن يصونه مما يفسده وينقص ثوابه .

وإليه الإشارة بقوله : « **فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث** » إلخ

ويصح أن يراد أنه سترة **بحسب فائدته** : وهو إضعاف شـهوات النفس ، وإليه الإشارة بقوله « **يدَع شهوتَــه** » إلخ .

ويصح أن يراد أنه سترة **بحسب مـــا يحصـــل مـــن الثـــواب وتضعيف الحسنات** » .

وقال عياض في الإكمال : معناه سترة من الآثام ، أو من النــار ، أو من جميع ذلك . وبالأخير (يعني بالقول الأخير ، وهو الجمع بـين المعنيين) جزم النووي .

وقال ابن العربي : إنما كان الصوم جُنَّةً من النار ؛ لأنه إمســـاكٌ عن الشهوات ، والنارُ محفوفةٌ بالشهوات ، فالحاصلُ : أنه إذا كـــفَّ نفسَه عن الشهوات في الدنيا كان ذلك ساتراً له من النار في الآخرة.

والصيام الذي يحصل به هذا الفضل ـــ إخواني الكرام ـــ هـــو الصيامُ الكاملُ الذي يحرصُ الإنسانُ فيه على حفظِ جوارحِـــه مـــن الحرام ، وحفظِ قلبِه من سوءِ الظنِّ بالناس ، والحقدِ عليهم والغـــشِّ لهم ، و حفظِ بطنِه من الحرام ، وليس هو مجرَّدَ الجوع والعطـــش ،

كما قال ﷺ : « **من صـــام رمضان ، وعرف حدودَه ، وتَحَفَّظ مما ينبغي له أن يَتَحَفَّظ كفَّرَ ما قبله** » (صححه ابن حبان عن أبي سعيد) .

فإذا خرق الصائمُ هذه الجـُـنَّةَ بالكلامِ السيِّءِ ، أو بالعملِ الســوءِ أو بالجهالةِ ونحو ذلك ، فلا فائدةَ لصيامه ، ولا حقيقةَ لعبادته ، كمـا في قوله ﷺ : « **من لم يدَعْ قولَ الزور والعملَ به فليس لله حاجةٌ في أن يدَعَ طعامَه وشرابَه** » (أخرجه البخاري عن أبي هريرة) .

وهذا كنايةٌ عن عدمِ قبولِ صيامِ هذا الصائمِ الذي تلبَّس صيامُــه بالزور ، وبيانٌ لكَوْنِ ثوابِ صيامِه لا يقوم في الموازنة بإثم الزور .

وقريبٌ من هذا قولُه تعالى **﴿ لن ينال اللهَ لحومُها ولا دماؤُهـــا ولكن يناله التقوى منكم ﴾** فإن معناه : لن يصيب رضاه الذي ينشـأ عنه القبول .

فليس المقصودُ من تشريع الصيام نفسَ الجوع و العطش ، بل مـــا يتبعه من قوةِ الإرادة ، وكسرِ الشهوات ، وتطويعِ النفــسِ الأمَّـــارةِ بالسوءِ للنفسِ المطمئنَّة ، فإذا لم يحصل ذلك فإن الله لا ينظـــر لهـــذا الصيام نظرَ القبول .

قال بعض السلف : الغِيبَةُ تَخْرِقُ الصيامَ ، والاستغفارُ يرقعـــه ، فمن استطاع منكم أن لا يأتِيَ بصومٍ مخرَّقٍ فليفعل .

وينصح أبو هريرة ﷺ من وقع في شيءٍ من ذلك بسرعة التوبة والاستغفار فيقول : الغِيبةُ تخرق الصوم والاستغفارُ يرقعه ، فمن استطاع منكم أن يجيء غداً بصومه مرقعاً فليفعل (البيهقي في الشعب) .

والغِيبةُ إنما هي أنموذج لما عداها من المعاصي ، نبَّه بها على ما سواها مما ينبغي على الصائم تجنُّبه ، والله أعلم .

وروى وصفَ الصيام بالجُنَّة و بأن المعاصي تخرقها أبو عبيدة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « **الصيام جُنَّةٌ ما لم يخرقها** » (أخرجه أحمد والنسائي وصححه الحاكم) قال الدارميُّ عقب روايته: « يعني بالغيبة »

ويشهد له حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال : « **الصيام جُنَّة ما لم يخرقها** » قيل : وبم يخرقها ؟ قال : « **بكذبٍ أو غِيبَة** » (أخرجه الطبراني في الأوسط) .

وكذلك حديث البراء بن عازب ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « **من صام يوماً لم يخرقْه كتب الله له عشرَ حسنات**» (أخرجه الطبراني في الأوسط) .

وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « **رُبَّ** - في رواية : **كم من** - **صائمٍ حظُّه من صيامه الجوعُ والعطشُ ، ورُبَّ** - في

رواية : **كم من – قائمٍ حظُّــه من قيامه السهر** »(أخرجـــه أحمـــد والنسائي وابن ماجه و صححه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم) .

وكان الصحابة والسلف رضوان الله عليهم يحذّرون من تضييــــع الصيام بفعل المعاصي والجهل ، فهذا عليٌّ ﷺ يقول : « ألا إنّ الصيــامَ ليس من الطعام والشراب ، ولكنْ من الكذبِ والباطلِ واللغو » .

وقال جابر بن عبد الله : إذا صمتَ فلْيَصُمْ سَـــمْعُك وبصـــرُك ولسانُك عن الكذب والـــمَحارم ، ودَعْ أذى الخاصــــة ، ولْيَكُــنْ عليك وقارٌ وسكينةٌ يومَ صيامك ، ولا تجعلْ يومَ فطرك وصومِـــك سواء .

وعن طليق بن قيس قال : قال أبو ذر : إذا صمتَ فتحفَّـــظْ مـــا استطعتَ . فكان طليق إذا كان يوم صومه دخـــل فلـــم يخـــرج إلا للصلاة . (أخرج هذه الآثار البيهقي في الشعب) .

وقال أبو العالية : الصائم في عبادة ما لم يغتَبْ أحداً ، وإن كـــان نائماً على فراشه . فكانت حفصةُ بنتُ سيرين تقول : يا حبَّذا عبــادة وأنا نائمةٌ على فراشي .

وقالت أيضا : الصيامُ جُنَّةٌ مالم يخرقْها صاحبُـــها ، وخَرْقُـــها : الغِيبَة .

وقال كعب : الصائمُ في عبادةٍ ما لم يغتبْ . (أخرجهما عبد الرزاق)

وقال الإمام أحمد : ينبغي للصائم أن يتعاهدَ صومَه من لسانه ، ولا يُمَاري ، ويصونَ صومه .كانوا إذا صاموا قعدوا في المساجد ، وقالوا : نحفظُ صومَنا . ولا يغتابُ أحداً ، ولا يعملُ عملاً يجرح به صومه . (ذكره ابن قدامة في المغني)

و لـكن ..

هل يبطل الصومُ بارتكاب شيءٍ من هذه المعاصي ؟

ذهب بعضُ العلماء إلى بطلانِ صيامِ من ارتكب شيئاً من ذلك ، فقد ذهب الأوزاعيُّ إلى أنّها تُفَطِّر الصائمَ و تُوجبُ عليه القضاء

وعن إبراهيمَ النَّخَعِيِّ قال : كانوا يقولون : الكذبُ يُفَطِّرُ الصائم (أخرجه ابن أبي شيبة بسند صحيح) .

ومما احتجَّ به أصحابُ هذا الرأي : ما رواه أنسٌ ﷺ : أن النبيَّ ﷺ أمر الناسَ أن يصوموا يوماً ، ولا يُفطرَنَّ أحدٌ حتى آذنَ له . فصلم الناسُ ، فلما أَمْسَوْا جعل الرجلُ يجيءُ إلى رسول الله ﷺ ، فيقول : ظَلْتُ منذ اليوم صائماً فَأْذَنْ لي فَلأُفطرْ . فيأذنُ له ، ويجيء الرجلُ فيقول ذلك فيأذنُ له ، حتى جاء رجلٌ فقال : يا رسولَ الله ، إنَّ

فتاتيْن من أهلك ظلّتا منذ اليوم صائمتين ، فَأْذَنْ لهمـــا فلْتُفْطِـرا . فأعرض عنه ، ثم أعاد عليه ، فقال رسول الله ﷺ : « **مـــا صَامَتَـــا ، وكيف صام مَن ظلَّ يأكلُ لحومَ الناس ؟ اذهبْ فمُرْهُما إنْ كانتـــا صائمتين أنْ تستقيئا** » ففعلتا ، فقاءتْ كلُّ واحدةٍ منهما عَلَقَة . فأتى النبيَّ ﷺ فأخبرَه ، فقال رسول الله ﷺ : « **لو ماتتـــا وهمـــا فيـــهما لأكلَتْهُما النار** » (أخرجه الطيالسي والبيهقي وفي سنده ضعف) .

وروى عُبَيْدٌ مولى رسول الله ﷺ هذه القصة ، وفي آخرهـــا : أن النبي ﷺ قال : « **إنَّ هاتيْن صامتا عمَّا أحلَّ اللهُ ، وأفطرَتا على مـــا حرّمَ اللهُ عزَّ وجلَّ عليهما ، جلستْ إحداهما إلى الأخرى فجَعَلَتَـــا تأكلان لحومَ الناس** » (أخرجه أحمد ، وفي سنده ضعف ، و هو وما قبلـه يقوي أحدهما الآخر) .

وذهب ابنُ حزمٍ إلى القول بإفطارِ الصـــائمِ ، إذا ارتكـــب أيَّ معصيةٍ من المعاصي ، فقال بعد ذكْرِ بعضِ مبطلاتِ الصوم :

« مسألة : ويُبْطِل الصومَ أيضاً تعمُّدُ كلِّ معصيةٍ ، أيِّ معصيـــةٍ كانت ، إذا فعلها عامداً ذاكراً لصومه » .

وساق أدلته التي تؤيـــد رأيه ، ثم قـــال : « فنهى عليه الســـلام عن الرفث والجهل في الصوم ، فكان من فعل شيئا من ذلك عامـــدا

ذاكرا لصومه لم يصم كما أمـــر ، ومن لم يصم كما أمـــــــر فلـــم يصم ؛ لأنه لم يأت بالصيام الذي أمره الله تعالى به ، وهو السالــــــم من الرفث و الجهل ، وهما اســـمان يعمـــان كل معصية » (المحلى).

والراجح الذي عليه جمهور العلماء : أن الأحاديث المذكـــورة لا تعـــني البطلان ، وإنما يقصد بها التغليظ و التشديد ، ولذلـــك فـــإن هذه الأفعال من اللغو والرفث والجهل والغيبة والكذب ونحوها تنقص ثواب الصوم ، ولا تبطله .

قال محمد بن نصر الـــمروزي في تعظيم قدر الصلاة : « قـــول النبي ﷺ : « **ليس الصيام من الطعام والشـــراب فقـــط ، ولكـــن الصيام من اللغو والرفث** » يقول : الصيام التام الكامل المتقبـــــل : الإمساك عن هذه المعاني ، كما قال في حديث آخر : « **من لم يـــدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشـــرابه** » لأن الله قد عفى عن هذه الأشياء ، فإذا ارتكب في صومه بعض مـــا نهى عنه كان تاركا لبعض الصيام ، وإذا ترك بعض الصيام جـــاز أن يقال : ليس بصائم ، يراد ليس بصائم صوما كاملا ، وذلك تـــأويل قولهﷺ : « **ما صام من ظل يأكل لحوم الناس** » يقـــول : لم يصـــم صياما كاملا » .

فدلت الأحاديث المذكورة آنفا و نحوها على أمرين ، كما نقل ابن حجر عن السبكي الكبير : « أحدهما : زيادة قبحها في الصوم على غيرها .

والثاني : البحث على سلامة الصوم عنها ، وأن سلامته منها صفة كمال فيه . وقوة الكلام تقتضي أن يقبح ذلك لأجل الصوم ، فمقتضى ذلك أن الصوم يكمل بالسلامة عنها . قال : فإذا لم يسلم عنها نقص .

ثم قال : ولا شك أن التكاليف قد ترد بأشياء ، وينبه بها على أخرى بطريق الإشارة ، وليس المقصود من الصوم العدم المحض كما في المنهيات ، لأنه يشترط له النية بالإجماع ، ولعل القصد به في الأصل : الإمساك عن جميع المخالفات ، لكن لما كان ذلك يشق خفف الله ، وأمر بالإمساك عن المفطرات ، ونبه الغافل بذلك على الإمساك عن المخالفات ، وأرشد إلى ذلك ما تضمنته أحاديث المبين عن الله مراده ، فيكون اجتناب المفطرات واجبا ، واجتناب ما عداها من المخالفات من المكملات . والله أعلم » .

ولما كان الصيام بهذه المثابة من حفظ الصائم من المعاصي ومـــن النار؛ فقد قال ابن عبد البر : « الجنة : الوقاية و الستر ، و حســـبك بهذا فضلا للصائم » .

وقد قال أبو أمامة الباهلي ﷺ : يا رسول الله ، مرني بأمر آخـذه عنك ، فقال النبي ﷺ : « **عليك بالصوم ؛ فإنه لا مثل لـــه** » . وفي رواية : « **لا عدل له** » (أخرجه النسائي وصححه ابن حبان وابن حجر)

ومن ثم عـــد بعض العلماء الصوم أفضل الأعمال ، خلافا لمـــا عليه جمهور العلماء ، ولما دلت عليه النصوص الصحيحة ؛ مـــن أن أفضلها الصلاة .

فهلم أحبتي في الله نجعل صيامنا جنة من المعاصي ، ليكون جنـــة بعد ذلك من النار ، إن شاء الله ، وهلم نتخلص من سيء العـــادات في هذا الشهر الكريم ، ولنتدرب عمليا على تقوية الإرادة .

أيها الأخ المدخن ، الصيام فرصتك للإقلاع عن هـــذه العـــادة السيئة ، و التوبة إلى الله من هذه الكبيرة المهلكة .

أيها الأخ المتعلق بالأفلام و المسلسلات ، الناظر إلى ما حـــرم الله من العورات ، الصيام فرصتك للتوبة و حفظ النظر عما حرم الله .

أيها الأخ المتوتر دائما ، السريع الغضب في كل حال ، الصيـــام فرصتك للتدرب على الحلم والأناة والصفح وكظم الغيظ والعفو عـن الناس .

أيها الأخ الذي يقطع أوقاته باغتياب الناس والنيل من أعراضـــهم ، الصيام فرصتك للتدرب على حفظ اللسان ، و حسن الكلام .

أيها الأخ العاصي لله ، المفـــرط في حقوق الله ، الصيام فرصتـك للإقبال على الله ، والاستغفار مما فات ، واستئناف حياة طيبة صالحـة تكون فيها أكثر قربا من الله ، وتتأهل بها لأن تكون من أهل ولايتـــه ورضوانه .

والله يتولى توفيقنا بفضله ، وهو نعم المولى ، ونعم النصير .



الوقـــفة الثالــثة

إني صـــــــــائم

الصيام سمو روحي وأخلاقي يرفع الإنسان إلى قمة عالية مـــــن النبل والكرم ، بحيث لا تصدر عن الصائم إلا المكارم في سائر أحوالـه وحتى إن اعتدي عليه فإن الصيام يمنعه شـــهوة الانتقـــام لنفســـه ، والانتصار لذاته ، فلا يعامل الساب والمجادل والجاهل بمثل فعله ، بـــل يقتصر على قوله : إني صائم ، ويكررها إذا استدعى الأمر.

عن أبي هريرةﷺ ، عن النبي ﷺ قال : « **لا تساب وأنت صـائم فإن سبك أحـــد فقـــل : إني صائم ، وإن كنت قائما فـــاجلس** »

(أخرجه أحمد والنسائي في الكبرى ، وصححه ابن خزيمة وابن حبان) .

وعنه ﷺ قال : قال رسول اللهﷺ : « **أعـــفوا الصيام ، فـــإن الصيام ليس من الطعام ولا من الشراب ، ولكـــن الصيـــام مـــن المعاصي ، فإذا صام أحدكم فجهل عليه رجل أو شتمه فليقل : إني صـــائم** ».

(أخرجه الطيالسي بسند ضعيف ، ولكن يشهد له ما بعده) .

وقال ﷺ : قال رسول الله ﷺ : « **إن الصيام ليس من الأكــل والشرب فقط ، إنما الصيام من اللغو و الرفث ، فإن سابك أحــد أو جهل عليك فقل : إني صــائم** »(صححه ابن حبان والحاكم) .

وبهذا كان أبو هريرة ﷺ يقول وينصح أصحابه ، فيقول لعطـاء : « إذا كنت صائما فلا تجهل ولا تساب ، وإن جهل عليك فقـل : إني صائم » (أخرجه عبد الرزاق) .

وفي إحدى روايات حديث الباب عند مســلم وغــيره : « **إذا أصبح أحدكم يوما صائما فلا يرفث ، ولا يجهل ، فــإن امــرؤ شاتمه أوقاتلــه فليقل : إني صائم إني صائم** » .

و لم أزل أسائل نفسي : لمن يقول الصائم : إني صائم ؟ هل يقـول ذلك لنفسه ، أو يقولها لمن سبه أو جهل عليه ؟ .

قال بعض العلماء : إن الصائم يقول ذلك في قلبه دون النطق به ، مال إلى ذلك ابن حبان رحمه الله ، واستدل بحديث أبي هريرة الــذي سبق في أول هذه الوقفة ، ثم قال رحمه الله : « ذكر خبر ثان يــدل على صحة ما أومأنا إليه » وروى بسنده إلى أبي هريــرة ﷺ قــال :

سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **إن سب أحدكم وهو صائم فليقل : إني صـــائم** » ينهى بذلك عن مراجعة الصائم .

وفي رواية الطبراني في الأوسط لحديث الباب : « **الصيام جـــنة ، فإن قاتله أحد أو شتمه أحد فلا يكلمـــه ، وليقل : إني صائم** » .

ومعنى ذلك : أن الصائم لا يراجع من يجهل عليـــــه أو يؤذيـــه بلسانه أو بفعله ، بل يصبر على هذا الأذى ويقول في نفسه لنفســـه : إني صائم يا نفسي ، فلا سبيل إلى شفاء غيظك بالمشاتمة . ولا يظـــهر قوله : إني صائم ؛ لما فيه من الرياء واطلاع الناس على عملـــه ، لأن الصوم من العمل الذي لا يظهر ، ولذلك يجزي الله الصائم أجره بغير حساب .

فالمراد : إذا بدرت من الصائم مقابلة الشتم بالشــــتم ، علـــى مقتضى الطبع ، فلينـــزجر عن ذلك ، وليقل لنفسه : إني صائم .

إنها إذا **تربية نفسية سامية** ، وتدريب راق على الصبر وكظـــم الغيظ ، وبصر عاقل بحقيقة هذه العبادة الكريمة .

وقال بعض العلماء : إنه يقول للذي يريد مشاتمته ومقاتلته : إني صائم ، وصومي يمنعني من مجاوبتك ؛ لأني أصون صومي عن الخنـــا

والزور من القول ، بهذا أمرت ، ولولا ذلك لانتصرت لنفسي بمثل ما قلت لي سواء ، ونحو ذلك .

والمعنى حينئذ على هذا التأويل في الحديث : أن الصائم نهي عن مقاتلته بلسانه ومشاتمته ، وصان صومه عن ذلك .

وبهذا ورد الحديث ، فعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « **من لم يدع قول الزور و العمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه** » .

وعلى هذا فالصائم ليس مجرد فرد صالح سمت نفسه وروحه ، بل هو كذلك داعية إلى الخلق الرفيع والأدب العالي .

وهو إذ يكرر هذه العبارة فإنما يريد أن يتأكد الانزجار من نفسه وممن يخاطبه بهذا الأسلوب العف اللين المثير لكوامن التقوى .

ولست أرى قصر المقصود بالحديث على أحد القولين السابقين ، بل هما جميعا مقصودان : أن يذكر الإنسان نفسه ، وأن يدعو غيره .

و بذلك يقوم المسلم بواجبه الصحيح ، و يؤدي رسالته الكريمة في إصلاح النفس و دعوة الغير ، ليحقق الخيرية التي جعلها الله لهذه الأمة المباركة في قوله تعالى ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف و تنهون عن المنكر و تؤمنون بالله** ﴾ .

ومن لطيف ما ذكره بعض العلماء : أنه يقــول : إني صــائم ، مرتين : مرة بقلبه ، ومرة بلسانه ، فيستفيد بقوله بقلبه كف لســانه عن خصمه ، وبقوله بلسانه كف خصمه عنه .

وقال الإمام النووي : « اختلفوا في معناه ، فقيل : يقوله بلســانه جهرا ، يسمعه الشاتم والمقاتل ، فيتزجر غالبا ، وقيــل : لا يقولــه بلسانه ، بل يحدث به نفسه ليمنعها من مشاتمته ومقاتلته ومقابلتــه ، ويحرس صومه عن المكدرات . ولو جمع بين الأمرين كان حسنا » .

فهيا – إخواني الأحبة – إلى هذا الخلق الكريم ، وليكن رمضــان والصيام سبيلا للتدرب على التسامي فوق مقتضيات الطبع البشري ، ونزغات الشياطين ، ولنتهيأ لأن نكون في هذا الشهر الكريم خيرا ممــا كنا في غيره ، ولنخرج منه أحسن أخلاقا و أعمالا مما استقبلناه .

فهذا نبينا ﷺ مع ما كان فيه من فضل ونبل وسمو ورقي ، كان إذا أتاه رمضان ازداد فضلا و سموا ورفعة ، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما :

« **كان رسول الله ﷺ أجود الناس بالخير، وكان أجود ما يكون في رمضان ، حين يلقاه جبريل ، وكان جبريل عليه السلام يلقاه كل ليلــة في رمضان حتى ينسلخ ، يعرض عليه النبي ﷺ القرآن ، فـــإذا لقيــه جبريل عليه السلام كان أجود بالخير من الريح المرسلة** » (متفق عليه) .

وفقنا الله جميعا لما يحبه ويرضيه ، وجعلنا ممن خرجوا من رمضان وقد غفرت ذنوبهم ، وأعتقت رقابهم من النار ، وتولانا جميعا بعنايته ورحمته ، وهو يتولى الصالحين .

الوقــفة الرابعة

خلوف فـــم الصائم أطيب من المسك

الخلوف - كما سبق - هو تغير رائحة الفم ، وأكثر ما يعـتري الصائم في آخر النهار ، نتيجة تأخر الطعام والشراب عنه ، ومــع أن ريح هذا الخلوف ينفر منها الإنسان ؛ فإن الحديث الشريف يبين لنـــا أنها أطيب من المسك .

قال البيضاوي : تفضيل لما يستكره من الصائم على أطيب مـــا يستلـــذ من جنسه ، وهو المسك ؛ ليقاس عليه ما فوقه مـــن آثـــار الصوم ونتائجه .

وقد ذكر النووي بعض أوجه تفضيل هذا الخلوف على المســـك فقال : « **وأما معنى الحديث** : فقال القاضي : قال المازرى : هـــذا مجاز واستعارة ؛ لأن استطابة بعض الروائح من صفات الحيوان الـذي له طبائع تميل إلى شيء فتستطيبه ، وتنفر من شيء فتستقذره ، و الله تعالى متقدس عن ذلك ، لكن جرت عادتنا بتقريب الروائح الطيبـــة منـــا ، فاســـتعير ذلـــك في الصـــوم لتقريبـــه مـــن الله تعـــالى . (قال السندي في حاشيته على النسائي : أي صاحبه عند الله أكـــثر

قبولا ووجاهة ، وأزيد قربا منه تعالى من صاحب المسك بسبب ريحه عندكم ، وهو تعالى أكثر إقبالا عليه بسببه من إقبالكم) .

قال القاضي : وقيل يجازيه الله تعالى به في الآخرة ، فتكون نكهته أطيب من ريح المسك ، كما أن دم الشهيد يكون ريحه ريح المسك . وقيل : يحصل لصاحبه من الثواب أكثر مما يحصل لصاحب المسك . وقيل : رائحته عند ملائكة الله تعالى أطيب من رائحة المسك عندنا ، وإن كانت رائحة الخلوف عندنا خلافه .

والأصح ما قاله الداودى من المغاربة وقاله من قال من أصحابنا: إن الخلوف أكثر ثوابا من المسك ، حيث ندب إليه في الجمع والأعياد ومجالس الحديث والذكر وسائر مجامع الخير » .

وذكر ابن حجر والسيوطي هذه الوجوه ، ثم قالا : « ونقل القاضي حسين في تعليقه أن للطاعات يوم القيامة ريحا يفوح .

قال : فرائحة الصيام فيها بين العبادات كالمسك » .

وقال ابن عبد البر : « معنى قوله « **لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك** » يريد أزكى عند الله وأقرب إليه ، وأرفع عنده من ريح المسك ، وهذا في فضل الصيام وثواب الصائم » .

و لـــكن .. هل هذا الطيب في الدنيا و الآخرة أو في الآخـــرة خاصة ؟

وقع بين العلماء خلاف في هذه المسألة ، كما ترى في الأقـــوال السابقة ، و ذكر النووي في شرح المهذب أن نزاعا حصل في هـــذه المسألة بين الشيخ أبي عمرو ابن الصلاح والشيخ أبي محمد العز ابـــن عبد السلام « فقال ابن عبد السلام : في الآخـــرة خاصـــة ؛ لأن في رواية لمسلم : « **أطيب عند الله من ريح المسك يوم القيامة** » .

وقال ابن الصلاح : هو عام في الدنيا والآخرة . واستدل بأشـياء كثيرة ، منها ما في رواية لابن حبان : « **لخلوف فم الصائمين يخلف أطيب عند الله من ريح المسك** »

(لفظ ابن حبان: «... **ولخلوف فم الصائم حين يخلف من الطعام أطيب عند الله من ريح المسك** » وترجم له بقوله : ذكر البيان بأن خلوف فم الصائم قد يكون أيضا أطيب من ريح المسك في الدنيا) .

وروى الحسن بن سفيان في مسنده من حديث جابر: « **أعطيــت أمتي في شهر رمضان خمسا** » قال : « **وأما الثانية : فإنهم يمســـون وخلوف أفواههم أطيب عند الله من ريح المسك** » حسنه أبو بكـــر السمعاني في أماليه .

وكل واحد من الحديثين صريح بأنه في وقت وجود الخلوف في الدنيا متحقق وصفه بكونه أطيب عند الله من ريح المسك .

قال : وقد قال العلماء شرقا وغربا معنى ما ذكرته في تفسيره : قال الخطابي : طيبه عند الله : رضاه به وثناؤه . وقال ابن عبد البر: معناه أزكى عند الله وأقرب إليه ، وأرفع عنده من ريح المسك . وقال البغوي في شرح السنة : معناه الثناء على الصائم والرضا بفعله. وكذا قاله القدوري إمام الحنفية في كتابه في الخلاف : معناه أفضل عند الله من الرائحة الطيبة . ومثله قال البوني من قدماء المالكية ، وكذا قاله أبو عثمان الصابوني وأبو بكر السمعاني وأبو حفص بن الصفار الشافعيون في أماليهم ، وأبو بكر بن العربي المالكي .

فهؤلاء أئمة المسلمين شرقا وغربا لم يذكروا سوى ما ذكرته ، ولم يذكر أحد منهم وجها بتخصيصه بالآخرة ، مع أن كتبهم جامعة للوجوه المشهورة والغريبة ، ومع أن الرواية التي فيها ذكر يوم القيامة مشهورة في الصحيح ، بل جزموا بأنه عبارة عن الرجاء والقبول ونحوهما ، مما هو ثابت في الدنيا والآخرة .

وأما ذكر يوم القيامة في تلك الرواية فلأنه يوم الجزاء ، وفيه يظهر رجحان الخلوف في الميزان على المسك المستعمل لدفع الرائحة

الكريهة ، طلبا لرضا الله ، حيث يؤمر باجتنابها واجتلاب الرائحة الطيبة ، كما في المساجد والصلوات وغيرها من العبادات ، فخص يوم القيامة بالذكر في رواية لذلك ، كما خص في قوله تعالى **﴿ إن ربهم بهم يومئذ لخبير﴾** ، وأطلق في باقي الروايات نظرا إلى أن أصل أفضليته ثابت في الدارين » .

ومعنى هذا أن التقييد بيوم القيامة في الرواية المذكورة لا ينافي حصوله في الدنيا أيضا ، وإنما ذكر يوم القيامة لأنه الذي يظهر فيه الأجر ، ويكون ذلك شعارا من شعارات أهل الإيمان الصائمين .

قال ابن حبان في الصحيح : « شعار المؤمنين في القيامة : التحجيل بوضوئهم في الدنيا فرقا بينهم وبين سائر الأمم ، وشعارهم في القيامة بصومهم : طيب خلوفهم أطيب من ريح المسك ليعرفوا بين ذلك الجمع بذلك العمل . نسأل الله بركة ذلك اليوم » .

حكم السواك في نهار رمضان : إذا كان رأي جمهور العلماء أن طيب الخلوف يكون في الدنيا كما يكون في الآخرة ؛ فإنهم قد اختلفوا في استعمال السواك لتطهير الفم في نهار رمضان على عدة آراء على النحو التالي :

ذهب فريق من العلماء إلى كراهة استعمال السواك بعد الزوال للصائم :

قال النووي : « واحتج أصحابنا — يعني الشافعية — بهذا الحديث على كراهة السواك للصائم بعد الزوال ؛ لأنه يزيل الخلوف الذي هذه صفته وفضيلته ، وإن كان السواك فيه فضل أيضا ؛ لأن فضيلة الخلوف أعظم .

وقالوا : كما أن دم الشهداء مشهود له بالطيب ، ويترك له غسل الشهيد ، مع أن غسل الميت واجب ، فإذا ترك الواجب للمحافظة على بقاء الدم المشهود له بالطيب ؛ فترك السواك الذي ليس هو واجبا للمحافظة على بقاء الخلوف المشهود له بذلك أولى . والله أعلم » .

وقال ابن عبد البر: «قال الشافعي : أحب السواك عند كل وضوء بالليل والنهار وعند تغير الفم ، إلا أني أكرهه للصائم آخر النهار من أجل الحديث في خلوف فم الصائم . وبه قال أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وأبو ثور ، وروي ذلك عن عطاء ومجاهد » .

ومما احتج به أصحاب هذا الرأي : ما رواه عطاء عن أبي هريرةﷺ قال : لك السواك إلى العصر ، فإذا صليت العصر فألقه ؛

فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك** » (أخرجه الدارقطني والبيهقي وسنده ضعيف جدا) .

ومال فريق من العلماء إلى كراهته إذا كان رطبا فقط :

قال ابن عبد البر : « وأما السواك الرطب فيكرهه مالك وأصحابه . وبه قال أحمد وإسحاق ، وهو قول زياد بن حدير وأبي ميسرة والشعبي والحكم بن عتيبة وقتادة » .

ولعلهم نظروا إلى أن الرطب من السواك قد يترل منه إلى الجوف شيء ، فكرهوه للصائم من أجل ذلك ، والله أعلم .

أما جمهور العلماء فذهبوا إلى استحباب السواك للصائم في كل الأوقات رطبا كان أو يابسا:قال ابن عبد البر : « ورويت الرخصة فيه عن عمر وابن عباس ، وليس عن واحد منهم فرق بين أول النهار وآخره ، ولا بين السواك الرطب واليابس .

وحجة من ذهب هذا المذهب : قول رسول الله ﷺ : « **لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك مع كل صلاة** » (متفق عليه عن أبي هريرة) ولم يخص رمضان ولا غيره .

وقد روي عنهﷺ أنه كان يستاك وهو صائم » (أخرجه أبـــوداود والترمذي وأحمد بسند حسن عن عامر بن ربيعة) .

وإلى هذا ذهب البخاري في الصحيح ، حيث قـــال في كتـــاب الصوم : « باب سواك الرطب واليابس للصائم ، ويذكر عن عامر بن ربيعة قال : رأيت النبي ﷺ يستاك وهو صائم ما لا أحصي ولا أعد . وقال أبو هريرة عن النبي ﷺ « **لولا أن أشق على أمـــتي لأمرتـــهم بالسواك عند كل وضوء** » .

ويروى عن جابر وزيد بن خالد عن النبي ﷺ ، و لم يخص الصائم مـن غيره . وقالت عائشة عن النبي ﷺ : « **السواك مطهرة للفم ، مرضاة للرب** » .

وقال عطاء و قتادة : يبتلع ريقه » .

وفي الموطأ عن مالك بن أنس : « أنه سمع أهل العلم لا يكرهـون السواك للصائم في رمضان ، في ساعة من ساعات النهار ، لا في أولـه ولا في آخره . و لم أسمع أحدا من أهل العلم يكره ذلك ولا ينهى عنه » **وهذا القول هو الراجح** الذي تشهد له ظواهر الأدلة ، كما هـــو واضح .

أما ما احتج به المخالفون فمردود عليه بما يلي :

١ – الأحاديث والآثار التي احتجوا بها ضعيفة الإسناد ، **ولا** تقاوم الأحاديث الصحيحة التي سبق ذكرها .

٢ – **قولهم** : إن السواك يزيل الخلوف الذي بين الشارع **فضيلته**

يجاب عنه : بأن الخلوف لا ينقطع ما دامت المعدة خالية ، **غايته أنه** يخف . ثم إن السواك مطهرة للفم فلا يكره ، لا سيما **ورائحة** الخلوف تتأذى بها الملائكة .

وأما حديث الباب في فضيلة الخلوف ففائدته عظيمة بديعة : وهي أنهﷺ إنما مدح الخلوف نهيا للناس عن تقذر مكالمة الصائمين بسبب الخلوف ؛ لا نهيا للصائمين عن السواك ، والله غني عن وصول الرائحة الطيبة إليه ، فعلمنا يقينا أنه لم يرد بالنهي بقاء الرائحة ، وإنما أراد نهي الناس عن كراهتها .

وهذا التأويل أولى ؛ لأن فيه إكرام الصائم ، ولا تعرض فيه للسواك فيذكر أو يتأول .

ولذا قال ابن دقيق العيد : يحتاج إلى دليل خاص بهذا الوقت ، يخص به عموم « **كل صلاة** » وفي رواية « **كل وضوء** » ، وحديث الخلوف لا يخصصه .

وهذا هو الذي قاله معاذ بن جبل ﷺ ، فعن عبد الرحمن بن غنم قال : سألت معاذ بن جبل : أتسوك وأنا صائم ؟ قال : نعم . قلت : أي النهار أتسوك ؟ قال : أي النهار شئت ، إن شئت غدوة ، وإن شئت عشية . قلت : فإن الناس يكرهونه عشية . قال : و لم ؟ قلت : يقولون : إن رسول الله ﷺ قال : « **لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك** » . فقال : سبحان الله ! لقد أمرهم رسول الله ﷺ بالسواك حين أمرهم ، و هو يعلم أنه لا بد أن يكون بفم الصائم خلوف وإن استاك ، وما كان بالذي يأمرهم أن ينتنوا أفواههم عمدا ، ما في ذلك من الخير شيء ، بل فيه شر ، إلا من ابتلى ببلاء لا يجد منه بدا . (أخرجه الطبراني في الكبير ، وقال ابن حجر في التلخيص : سنده جيد)

٣ - وأما قياس الخلوف على دم الشهيد ، **فقد أجيب** : بأنه قياس مع الفارق ، فإن الصائم مناج لربه ، فندب له تطييب فمه ، والشهيد ليس بمناج ، وهو جيفة أشد من الدم ، فزواله لا يؤثر شيئا بل بقاؤه يوجب مزيد الرحمة له ، ولأنه أثر الظلم الذي ينتصف به من خصمه ، وسبيل الخصومة الظهور ، ولأنه بعد الموت فيأمن فيه الرياء .

ولا يرد أن مناجاة الصائم لربه مع دوام الخلوف أولى ؛ لقوله ﷺ « **أطيب عند الله من ريح المسك** » ؛ لأن مدحه يدل على فضله لا على أفضليته على غيره ، وكم من عبادة أثني عليها مع فضل غيرها عليها .

وهذه المسألة من قاعدة ازدحام المصالح التي يتعذر الجمع بينها ، فالسواك إجلال لله حال مناجاته في الصلاة ، لأن تطهير الفم للمناجاة تعظيم لها ، والخلوف مناف لذلك ، فقدم السواك ؛ لخبر « **لولا أن أشق** » (قاله الزرقاني في حاشيته على الموطأ) .

وبهذا يتبين رجحان القول باستحباب السواك للصائم في كل وقت .

ومن ألطف ما استنبطه العلماء من هذا الحديث ما قاله ابن جماعة : « وفيه : أن خلوف الصائم أفضل من دم الجريح في سبيل الله ؛ لأن النبي ﷺ قال في الشهيد « **إن ريحه ريح المسك** » ، وقال في خلوف الصائم : « **إنه أطيب منه** » .

ووجهه : أن الجريح يظهر أمره للناس ، فربما داخله رياء ، والصائم لا يعلم بصومه إلا الله ، فلعدم دخول الرياء فيه صار أرفع »

ولا أجدني بعد هذا الكلام الشافي الـــوافي إلا مـــهيبا بنفســـي وإخواني إلى إحسان الصيام ؛ حتى يكون لخلوف أفواهنا هذه الريـــح الزكيـــة الطيبة في الدنيا والآخرة ، وأن أهنئ الصائمين بـــالقبول إن شاء الله ، فإذا حصل الصائم هذا الفضل كله بتغير ريح فمه ، فمـــا ظنك بصلاته وقراءته وسائر عباداته ؟!

جعلنا الله وإياكم من المقبولين الفائزين ، إنه على كـــل شـــيء قدير .

الوقـــفة الخـــامسة

للصـــائم فرحـــتان

ما أعظم فضل الله وما أوسع عطاءه ! إذ جعل للصائم فرحتـين : الأولى في الدنيا ، والثانية في الآخرة .

فأما الفرحـــة الأولى : فإنه إذا أفطر فرح بفطره .

قال القرطبي : معناه : فرح بزوال جوعه وعطشه ، حيث أبيـــح له الفطر ، وهذا الفرح طبيعي ، وهو السابق للفهم .

وقيل : إن فرحه بفطره إنما هو من حيث إنه تمام صومه ، وخاتمـة عبادته ، وتخفيف من ربه ، ومعونة على مستقبل صومه .

قال ابن حجر : ولا مانع من الحمل على ما هو أعم مما ذكـــر ، ففرح كل أحد بحسبه ؛ لاختلاف مقامات الناس في ذلك ، فمنـــهم من يكون فرحه مباحا وهو الطبيعي ، و منهم من يكون مســتحبا و هو ما يكون سببه شيء مما ذكره .

أقـــول : الفرح بتمام الصوم أقرب إلى المقصود ، والله أعلـــم ، بل هو مستحب مندوب إليه ؛ لأن التوفيق لتمـــام الصـــوم بمعنـــاه الحقيقي وسلامته من المفسدات نعمة من الله وفضل ، وقد قــــال الله

تعالى ﴿ **قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هـــو خـــير ممـــا يجمعون** ﴾ .

وهو لا يفرح منا ولا فخرا ، بـــل رضـــا بتوفيـــق الله إيـــاه ، واستبشارا بما وعده الله من الثواب الجزيل الذي لا يعلمه إلا الله .

وقيـــل : إنه يحتمل أن يريد بفطره يوم موته ، فإن المؤمن صـــام عن لذاته المحرمة طول عمره ، فدهـــره في ذلك يوم موته ، وفطـــره في آخره ، وذلك حين فرحه بما يرى مما أعد الله له من الكرامات .

ومع وجاهة هذا القول فإن ظواهر النصوص تدل على غير ذلـك وعلىأن الفرح المقصود يكون عند إفطاره من صيامه ، ومن ذلـــك قولهﷺ : « **للصائم فرحتان : فرحة في الدنيـــا عنـــد إفطـــاره ، وفرحـــة في الآخرة** » (أخرجه أحمد وأبو يعلى عن أبي هريـــرة بســـند صحيح) .

فهذا صريح في أن هذه الفرحة في الدنيا ، و هو المتبادر إلى ذهـن المخاطب ، و هذا غير الفرح الذي يحصل للمؤمن عند الموت حـــين تبشره الملائكة برحمة الله ، و يرى مقعده في الجنة ، فيحب لقـاء الله ، ويحب الله لقاء ه .

وقيـــل : إنه يفرح بما أعطاه الله عند فطره من استجابة دعائه .

فقد روى أبو هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ: « **ثلاثـــة لا ترد دعوتهم : الصائم حتى يفطر ، والإمام العادل ، ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام ويفتح لها أبواب السماء ويقـــول الـــرب : وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين** » (أخرجه أحمد والترمذي وحسنه وابـن ماجه وصححه ابن خزيمة وابن حبان) .

وقد جاءت الأحاديث الأخرى بأن هذه الدعوة المستجابة تكـون في وقت الفطر ، فعن عبد الله بن أبي مليكة قال : سمعت عبد الله بـن عمرو بن العاص ﷺ يقول : قال رسول الله ﷺ : « **إن للصائم عنـد فطره لدعوة ما ترد** » قال ابن أبي مليكة : سمعت عبد الله بن عمـرو يقول إذا أفطر : اللهم إني أسألك برحمتك التي وسعت كل شـيء أن تغفر لي (أخرجه ابن ماجه وابن السني وصححه البوصيري في الزوائد) .

ولهذا كان عبد الله بن عمرو ﷺ يتحرى الدعاء في ذلك الوقت ، فعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، قال : سمعت رسـول الله ﷺ يقول : « **للصائم عند إفطاره دعوة مستجابة** » فكان عبد الله بـن عمرو إذا أفطر دعا أهله وولده ، و دعا (أخرجه الطيالسي ، وفي سـنده ضعف ، ويقويه ما قبله) .

ولا مانع أن يكون دعاء الصائم مجابا على وجه العموم مـــدة صومه ، ثم إن له عند فطره دعوة خاصة مستجابة ، إذ يكون في هـذا الوقت قد أتم عبادته ، وأكمل صيامه ، فيكون ذلك من جملة فرحه ، والله أعلم .

وأما الفرحـــة الثـــانية : فإنه إذا لقي ربه فرح بصومـــه ، أي بجزائه وثوابه .

وهذا الفرح عند لقاء ربه إما لسروره بربه ، أو بثواب ربه .

ورجح الحافظ ابن حجر أن الفرح بثواب ربـــه أظـــهر ؛ إذ لا ينحصر الفرح بربه في الصوم ، بل يفرح حينئذ بقبـــول صومـــه ، وترتب الجزاء الوافر عليه .

ولعل مما يقوي ما قاله ابن حجر رحمه الله : ما جاء في روايـــة لمسلم في حديث الباب : « **إذا لقي الله فجزاه فرح** » .

وفرح الصائمين عند لقاء ربهم ومعاينة ثوابه أمر طبيعـــي ، لمـــا يلقاه الصائمون من تكريم غير محدود ، إذ يسقون في الموقف والنـــاس عطاش ، ويدخلون من باب خاص بالصائمين ، لا يدخل منه غـيرهم وهو باب الريان ، ويشفع لهم الصيام بين يـــدي الله عـــز وجـــل ، وبذلك يتميزون على أهل الموقف ، ويفرحون بعطاء الله لهم .

وبكل ذلك جاءت النصوص :

فعن عبد الرحمن بن سمرة ﷺ قال : خرج علينا رسول الله ﷺفقال : « **رأيت البارحة عجبا ، رأيت رجلا من أمتي يلهث عطشا ، كلما ورد حوضا منع ، فجاءه صيام رمضان فسقاه وأرواه** » (أخرجه أبو الشيخ في طبقات المحدثين بأصبهان . وهو مختصر من حديث طويل أخرجه الطبراني والحكيم الترمذي وأبو نعيم ، ونقل ابن القيم في الوابل الصيب أن ابن تيمية كان يعظم شأنه ويقول : شواهد الصحة عليه) .

وعن سهل بن سعد ﷺ عن النبي ﷺ قال : « **إن في الجنة بابا يقال له الريان ، يدخل منه الصائمون يوم القيامة ، لا يدخل منه أحد غيرهم ، يقال : أين الصائمون ؟ فيقومون لا يدخل منه أحد غيرهم ، فإذا دخلوا أغلق ، فلم يدخل منه أحد** » (متفق عليه) .

وفي رواية : « **في الجنة ثمانية أبواب ، فيها باب يسمى الريان لا يدخله إلا الصائمون** » (أخرجه البخاري)

وفي رواية : « **إن في الجنة لبابا يدعى الريان ، يدعى له الصائمون ، فمن كان من الصائمين دخله ، ومن دخله لم يظمأ أبدا** » (أخرجه أحمد والترمذي وصححه والنسائي وابن ماجه) .

وإنما سمي باب الصائمين بهذا الاسم لتقع المناسبة بين لفظه ومعناه ؛ لأنه مشتق من الري ، وهو مناسب لحال الصائمين ، وقد بين الحديث أن من دخله لم يظمأ أبدا .

واكتفى بذكر الري عن الشبع ؛ لأنه يدل عليه ، من حيث إنه يستلزمه ، أو لكون العطش أشق على الصائم من الجوع .

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة ، يقول الصيام : أي رب ، منعته الطعام والشهوات بالنهار ، فشفعني فيه ، ويقول القرآن : منعته النوم بالليل ، فشفعني فيه . قال : فيشفعان** » (أخرجه أحمد بسند حسن وصححه الحاكم ووافقه الذهبي) .

قال المناوي في الفيض : « فيشفعان : بضم الياء وشد الفاء : أي يشفعهما الله تعالى فيه ، ويدخله الجنة . وهذا القول يحتمل أنه حقيقة بأن يجسد ثوابهما ، ويخلق الله فيه النطق ، والله على كل شيء قدير ، ويحتمل أنه يوكل ملكا يقول عنهما ، ويحتمل أنه على ضرب من المجاز والتمثيل » .

أقول : الوجه الأول أولى إن شاء الله ، و لا مانـــع أن يخـلق الله في الأعراض أرواحا ، ويجعل لها ألسنة تنطق ، وأحوال البرزخ والآخـــرة تختلف عن أحوالنا في الدنيا ، والله على كل شيء قدير .

وإن بين فرحتي الدنيا و الآخرة لرابطا واضحا ، فإن المســـــلم ليذكر إذا وفـــقه الله لتمام الصوم ، وجاء موعد الإفطار أن الدنيا إنما تقطع كما قطع اليوم الذي صامه ، ثم يعقبها الفرح بحسن العاقبـــة ، فيدعو ربه أن يوفقه لقضاء هذه الحياة في طاعة ، كما قضى نهـــــاره ذلك ، وإن المسلم الصائم إذا آلمه الجوع أو العطـــش ، أو أرهقـــه الصوم ، وبخاصة في أوقات الحر الشديد ؛ فإنه يعلـــل نفسه بقــــرب انقضاء النهار ، ودخول وقت الإفطار ، وتحصيل الشـــبع والـــري ، وكذلك إذا اشتدت به الأحوال في حياته ، وضاقت عليـــه المعيشـــة ونحو ذلك ؛ فإنه يذكر نفسه بالآخرة ، ويعلـــلها بقرب القدوم على مولاه ، وبأن شمس هذه الحياة إلى أفول قريب ، حيث يلقي همومـه ، ويستريح في ظل عرش الرحمن راضيا مرضيا .

وإذا حدثت الصائم نفسه بشيء من الشـــــهوات الممنوعـــة في الصوم عللها بقرب انقضاء نهار الصوم ، حيث ينال ما اشتهت نفســه بعد أن يسلم من عار إثم المعصية ، وكذلك يذكر نفسه إذا دعتـــه إلى

لذة محرمة ، فإنه يصبرها حتى تنال عند الله ما تشتهي مما سمعت بـــه أذنه و مما لم تسمع ، فيسلم بذلك من عار الوقوع في لذة آثمـــة لا تلبث حلاوتها أن تذهب ، ويبقى إثمها ، ويكفي الصائم يوم لقـــاء الله أنه يسقى من الحوض ، و أهل الموقف عطاش في الحر الشـــديد والموقف الرهيب ، ويدخل الجنة من باب الريان الـــذي أعـــده الله للصائمين ، فإذا دخلوا أغلق فلم يدخل منه غيرهم .

فيا فرحة ما أعظمها ! ويا سعادة ما أوسعها !

نسأل الله بأسمائه و صفاته أن يتقبل صيامنا و قيامنـــا و ســـائر أعمالنا ، و أن يكتبنا في ديوان السعداء الفائزين .

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلـــى آلـــه وصحبـــه أجمعين .

٢

الإنفـــــاق و القرآن في رمضـــــان

عن عبـــد الله بن عباس ﷺ قال : **كان رســـولُ اللهِ ﷺ أَجْـــوَدَ النَّاسِ ، وَكانَ أَجْـــوَدُ ما يكونُ في رمضـــــانَ ، حيَن يَلْقَـــاهُ جبريل ، وَكانَ يَلْقَـــاهُ في كلِّ ليلـــــةٍ مـــن رمضـــانَ ، فيُدَارِسُـــــهُ القـــرآنَ ، فلَرَسـُــولُ اللهِ ﷺ أَجْـــوَدُ بالخيْرِ من الرِّيحِ المــُرْسَلَـــة** . (متفـــــق عليه) .

ترجمة راوي الحديث

هو الصحابي الجليل والسيد النبيل ، حَبْر الأمة ، وفقيه الملة ، **أبو العباس عبد الله بن عباس بن عبد المطلب الهاشمي** ، ابن عم رسول الله ﷺ ، قال مجاهد : كان ابنُ عباس رضي الله عنه يسمى البحرَ من كثرة علمه (أخرجه ابن سعد بسند صحيح) .

مولده : ولد ابن عباس رضي الله عنه قبل الهجرة بثلاث سنين ، وقيل : بأربع في شِعب أبي طالب ، أثناء حصار بني هاشم ، وحنَّكه النبي ﷺ بريقه الشريف .

فعن ابن عباس رضي الله عنه قال : حدثتني أم الفضل بنت الحارث قالت : بينا أنا مارَّةٌ والنبي ﷺ في الحجر ، فقال : « **يا أم الفضل** » قلت : لبيك يا رسول الله . قال : « **إنكِ حاملٌ بغلام** » قلت : كيف وقد تحالفت قريش لا يولدون النساء ؟ قال : « **هو ما أقول لكِ ، فإذا وضعتيه فائتيني به** » فلما وضعتُه أتيتُ به النبي ﷺ فسماه عبد الله ، وألباه بريقه ، قال : « **اذهبي به فلَتَجدِنَّه كيِّساً** » قالت : فأتيتُ العباسَ فأخبرتُه ، فتلبَّس ، ثم أتى النبي ﷺ ، وكان رجلاً جميلاً مديدَ القامة ، فلما رآه النبي ﷺ قام إليه ، فقبَّل ما بين عينيه ، وأقعده عن

يمينه ، ثم قال : « **هذا عمي ، فمن شاء فليُباهِ بعمه** » فقال العباس : بعضَ القول يا رسول الله . قال : « **ولم لا أقول وأنت عمي وبقية آبائي ؟ والعمُّ والد** » (أخرجه الطبراني في الكبير بسند حسن) .

ولما توفي النبي ﷺ كان عمره ثلاث عشرة أو أربع عشرة سنة .

وروى أحمد بسند صحيح عنه قال : « تُوفي رسول الله ﷺ وأنا ابن خمس عشرة سنة » .

وعنه رضي الله عنه قال : « تُوُفِّي رسول الله ﷺ وأنا ابن عشر سنين ، وقد قرأتُ المحكم ». وسُئل : مثل مَنْ أنتَ حين قُبض النبي ﷺ قال : أنا يومئذ مختون . قال : وكانوا لا يختنون الرجل حتى يدرك . وفي رواية : قبض النبي ﷺ وأنا ختين . و قد ذكر ابن عباس أنه كان في حجة الوداع قد ناهز الحُلُم (أخرجها جميعا البخاري) .

وروي عنه أنه قال : وُلِدتُ قبل الهجرة بثلاث سنين ، ونحن في الشعب ، وتُوفي رسول الله ﷺ وأنا ابن ثلاث عشرة (أخرجه الخطيب)

قال ابن عبد البر في التمهيد : « وما قاله أهل السير والعلم بأيام الناس عندى أصح ، والله أعلم ، وهو قولهم : إن ابن عباس رضي الله عنه كان ابنَ ثلاثَ عشرة سنةً يوم تُوفى رسول الله ﷺ » .

وجمع الحافظ ابن حجر في الفتح بين هذه الروايات الصحيحة : „ بأن يكون ناهز الاحتلام لما قارب ثلاث عشرة ، ثم بلغ لما استكملها ، و دخل في التي بعدها ، فإطلاق خمسة عشر بالنظر إلى جبر الكسرين ، و إطلاق العشر و الثلاث عشرة بالنظر إلى إلغاء الكسر ، و إطلاق أربع عشرة بجبر أحدهما „ .

صحبته للنبي ﷺ : صحب ابنُ عباس ﷺ النبيَّ ﷺ نحواً من ثلاثين شهراً ، فإنه قد انتقل مع أبويه إلى دار الهجرة سنة الفتح ، وذلك في رمضان سنة ثمان ، وكان قبل ذلك من المستضعفين بمكة مع أمه ، فإنه قال فيما صح عنه : „ كنتُ أنا وأمي من المستضعفين ، أنا من الولدان وأمي من النساء „ (أخرجه البخاري) .

دعاء النبي ﷺ له بالحكمة والفقه : قال ﷺ : „ دعا لي رسول الله ﷺ أن يؤتيني الحكمة مرتين „ (أخرجه الترمذي وحسنه) .

وفي رواية قال : ضمَّني رسول الله ﷺ وقال : „ **اللهم علمه الحكمة** „ ، وفي رواية : „ **اللهم علمه الكتاب** „ .

وعنه أن النبي ﷺ دخل الخلاء ، فوضعتُ له وَضوءاً قال : „ **من وضع هذا ؟** „ فأُخبر ، فقال : „ **اللهم فقهه في الدين** „ (أخرجها جميعا البخاري) .

وفي رواية : « اللهم فقهه في الدين ، وعلّمه التأويل » (أخرجه ابن سعد) .

قال الحافظ ابن حجر في الفتح : « وهذه الدعوة مما تحقق إجابة النبيﷺ فيها ؛ لما عُلم من حال ابن عباس في معرفة التفسير والفقه في الدين ، رضي الله تعالى عنه » .

طلبه للحديث و العلم بعد وفاة النبيﷺ : كان ابن عباس ﷺ شديدَ الذكاء ، بعيدَ النظر ، مدركاً للدور الذي يجب عليه أن يقوم به في خدمة دين الله ، ومن أهم ما التفت إليه واهتم به حفظُ السنة على المسلمين ، والقيامُ بدور الوسيط بين كبار الصحابة الذين عايشوا النبي ﷺ وتعلموا منه ، وحفظوا أحواله وأقواله ، وبين الأجيال اللاحقة التي ستحتاج لهذا العلم ، ومن ثَم أخذ يتردد على كبار الصحابة بعد وفاة النبي ﷺ ، ويتلقى عنهم ، وجعل يدعو شباب الصحابة لمتابعته في القيام بهذه المهمة العظيمة .

فعنه ﷺ قال : « طلبت العلم فلم أجده أكثر منه في الأنصار ، فكنت آتي الرجل منهم ، فأسأل عنه ، فيقال لي : نائم . فأتوسَّد ردائي ، ثم اضطجع ، حتى يخرج إلى الظهر ، فيقول : متى كنتَ ههنا يا ابن عم رسول اللهﷺ ؟ فأقول : منذ طويل . فيقول : بئس ما

صنعت ! هلا أعلمتني ؟ فأقول : أردتُ أن تخرج إليَّ وقد قضيتَ حاجتك » (أخرجه الدارمي) .

وفي رواية قال : « وجدتُ عامَّة علم رسول الله ﷺ عند هذا الحيِّ من الأنصار ، إن كنت لأَقيل عند باب أحدهم ، ولو شئتُ أن يُؤذَن لي عليه لأذن ، ولكن أبتغي طيب نفسه » (أخرجه أبو خيثمة بسند حسن) .

وقال أيضاً : « لما تُوفي رسول الله ﷺ قلت لرجل من الأنصار : يا فلان ، هلمَّ فلْنَسألْ أصحابَ رسول الله ﷺ ، فإنهم اليوم كثيرٌ. فقال : واعجباً لك يا ابن عباس ! أترى الناس يحتاجون إليك ، وفي الناس من أصحاب النبي ﷺ من ترى ! فترك ذلك وأقبلتُ على المسألة ، فإن كان ليبلغني الحديثُ عن الرجل ، فآتيه وهو قائل ، فأتوسَّد ردائي على بابه ، فتسفي الريحُ على وجهي الترابَ ، فيخرج ، فيراني ، فيقول : يا ابنَ عم رسول الله ﷺ ، ما جاء بك ؟ ألا أرسلتَ إليَّ فآتيك ؟ فأقول : أنا أحق أن آتيك . فأسأله عن الحديث .قال : فبقي الرجلُ حتى رآني وقد اجتمع الناس عليَّ ، فقال : كان هذا الفتى أعقل مني » (أخرجه ابن سعد والدارمي وصححه الحاكم ووافقه الذهبي) .

وإنْ تعجبْ من اجتهاده في الطلب فعجبٌ هذا الأدبُ الرفيعُ في طلبه للعلم ، واهتمامُه العظيم براحة شيوخه ، وحرصُه على عدم إملالهم ، حتى يستخرج ما عندهم ، ومن ثَم كانوا يُسَرُّون بقربه وإسماعه ، ومن ذلك قوله : « ما حدثني أحدٌ قطُّ حديثاً فاستفهمتُه ، فلقد كنتُ آتي بابَ أُبيٍّ بن كعبٍ وهو نائم ، فأقيل على بابه ، ولو علم بمكاني لأحبَّ أن يوقَظ ، لقربي من رسول الله ﷺ ، ولكني أكره أن أمله » (أخرجه ابن سعد) .

روايته عن النبي ﷺ : لما كان ابن عباس رضي الله عنهما لم يلازم النبي ﷺ إلا بعد الفتح ، ولما كان إذ ذاك صغيراً لم يسافر معه إلا في حجة الوداع ، فقد بالغ البعض في التقليل من عدد مسموعاته من النبي ﷺ ، فروى عن غُنْدَر محمد بن جعفر أن ابن عباس لم يسمع من النبي ﷺ إلا تسعة أحاديث ، وعن يحيى بن سعيد القطان : عشرة . وقال الغزالي في المستصفى : أربعة .

قال الحافظ ابن حجر في التهذيب : « وفيه نظر ، ففي الصحيحين عن ابن عباس مما صرَّح فيه بسماعه من النبي ﷺ أكثر من عشرة ، وفيهما مما يشهد فعله نحو ذلك ، وفيهما مما له حكم الصريح نحو ذلك ، فضلا عما ليس في الصحيحين » .

وفضلاً عن روايته عن النبيﷺ ، فقد روى عن جماعة من كبـــار الصحابة .

فضـــله و ثنـــاء الصحابة و التابعين عليه :

كان لاجتهاد ابن عباس ﷺ في طلب العلم ، وما ميزه الله به من الذكاء و النبوغ المبكر ، فضلاً عن دعاء النبي ﷺ له ؛ الأثرُ الكبيرُ في غزارة علمه ، حتى سُمِّي البحر لكثرة علمه ، وقـــد عـــرف كبـــارُ الصحابة - فضلاً عن غيرهم - له هذا الفضل ، حتى كان عمـــرﷺ يجلسه مع أشياخ بدر رغم حداثة سنه . فعنهﷺ قال :كان عمر بـــن الخطابﷺ يأذن لأهل بدر ويأذن لي معهم . فذكر أنه سألهم وســـأله فأجابه ، فقال لهم :كيف تلومونني عليه بعد ما ترون ؟ .

وعن عطاء بن يسار : أن عمر وعثمانﷺ كانا يدعـــوان ابـــن عباس فيشير مع أهل بدر ، وكان يفتي في عهد عمر وعثمان إلى يوم مات .

وقال ابن مسعود : لو أدرك ابن عباس أسناننا ما عاشره منا أحد.

وقال : نعم ترجمان القرآن ابن عباس (أخرجها جميعا ابن سعد) .

وعن سعد بن أبي وقاصﷺ قال : ما رأيتُ أحـــداً أحضرَ فهماً ولا ألَبَّ لُبّاً ، ولا أكثرَ علماً ، ولا أوسعَ حِلْماً من ابن عباس . ولقد

رأيتُ عمرَ بن الخطاب يدعوه للمعضلات، ثم يقول: عندك، قد جاءتْكَ مُعْضِلةٌ. ثم لا يجاوز قوله، وإنَّ حوله لأهلَ بدرٍ من المهاجرين والأنصار.

وقال طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه: لقد أُعْطِي ابنُ عباس فهماً ولقناً وعلماً، ما كنتُ أرى عمرَ بنَ الخطاب يقدِّم عليه أحدا (أخرجهما ابن سعد وفي سندهما ضعف).

وقال أبو هريرة لما مات زيد بن ثابت: مات اليوم حَبْرُ الأمة، ولعلَّ الله أن يجعل في ابن عباس منه خلَفا (أخرجه ابن سعد بسند صحيح)

وفيه يقول حسان بن ثابت رضى الله عنه:

إذا ما ابنُ عباس بَدَا لك وجهُه
رأيتَ له كل أحواله فضلا

إذا قال لم يتركْ مقالاً لقائلٍ
بمنتظماتٍ لا تَرَى بينها فصلا

كفى وشفى ما فى النفوس فلم يدَعْ
لذى إربَةٍ فى القول جداً ولا هزلا

سَمَوْتَ إلى العَلْيا بغير مشقَّةٍ
فنلتَ ذراها لا دَنِيًّا ولا وَغْلا

خُلِقْــتَ خَلِيــقاً للمَــودَّة والنَّــدى

بَلِيــحاً و لم تُخْلَقْ كَهَامًا ولا خَبْلا

وحسبك بثناء هؤلاء الأعلام من شيوخ الصحابة و غيرهم إعلانــاً بفضيلة ابن عباس رضي الله عنه .

أما تلاميــذه : فقد روى عنه عدد كبير بلغوا عنــد المــزي في تهذيب الكمال مائة وسبعة وتسعين نفسا .

وثناء هؤلاء الأعلام وغيرهم عليه أكثر من أن يحصى .

فعن طاوس قال : ما رأيتُ رجلاً أعلمَ من ابن عباس .

وعن ليث بن أبي سليم قال : قلت لطاووس : لزمتَ هذا الغـلامَ - يعني ابنَ عباس - وتركتَ الأكابرَ من أصحاب رســول الله ﷺ ! فقال : إني رأيت سبعين من أصحاب رسول الله ﷺ إذا تــدارؤوا في شيءٍ صاروا إلى قول ابن عباس .

وقال ابن المسيب : ابن عباس أعلم الناس (أخرجهما ابن سعد) .

وقال مجاهد والقاسم بن محمد : ما سمعتُ فتيا أحسنَ من فتيــا ابن عباس ، إلا أن يقول قائل : قال رسول الله ﷺ (الاستيعاب) .

تقــدُّمه في الفتوى ، ومنهجـه فيهـا :

مع أن ابنَ عباس رضي الله عنهما ليس أكثرَ الصحابة روايةً ؛ فإنــه يُعَــد أكثرَ الصحابة الذين أُثرتْ عنهم الفتاوى ، ذلك أنه كان حادَّ النظــرِ في النصوص ، عميقَ الغَوْرِ في فهم عللها ومعانيها ، فضلاً عن إلمامــه بكثير من العلوم ، ومعرفتِه الواسعةِ بالعربيةِ ، وحفظه لكثــيرٍ مــن أشعار العرب ، وقبل كل ذلك : دعاءُ النبي ﷺ له بالفقه في الديــن ، فكان يَسْهُل عليه الإقدامُ في الفتوى ، وكــان لا يــتردَّدُ في إجابــة السائل .

فعن نافع مولى ابن عمر قال : « كان ابنُ عمر وابنُ عبــاس رضي الله عنهم يجلسان للناس عند مَقْدَمِ الحاجِّ ، فكنتُ أجلس إلى هذا يومــاً وإلى هذا يوماً ، فكان ابنُ عباسٍ يجيبُ ويفتي في كلِّ ما سُئِل عنه ، وكــان ابنُ عمرَ يردُّ أكثرَ مما يفتي » (سير أعلام النبلاء) .

لذلك كان أكثرَ الصحابة إفتاءً ، وقد سمَّى ابنُ حــزم في الإحكــام الصحابةَ المكثرين من الفتوى ، وهم : عائشةُ أم المؤمنين ، وعمرُ بــنُ الخطاب ،وابنُه عبدُ الله ، وعليُّ بنُ أبي طالب ، وعبدُ الله بنُ عبـاس ، وعبدُ الله بنُ مسعود ، وزيدُ بنُ ثابت ، ثم قال : « فهم سبعة ، يمكن أن يُجمَع من فُتْيَا كلِّ واحدٍ منهم سِــفْرٌ ضخم . وقد جمع أبو بكــر

محمدُ بنُ موسى بنِ يعقوب ابنِ أمير المؤمنين المأمون فُتْيا عبدِ الله بـــنِ العباس في عشرين كتاباً ، وأبو بكر المذكور أحدُ أئمةِ الإســـــلام في العلم والحديث » .

قال ابن القيم في الوابل الصيب بعد أن ذكر أن فتاويه جُمعـــت في سبعة أسفار كبار : « وهي بحسب ما بلغ جامعَها ، وإلا فعلمُ ابـن عباس كالبحر » .

وأما منهجـــه في الفتـــوى : فعن عبيد الله بن أبي يزيد ، قال : « كان ابنُ عباس إذا سُئِل عن الأمر ، فإنْ كان في القرآن أخبرَ بـــه ، وإنْ لم يكنْ في القرآن وكان عن رسول الله ﷺ أخبرَ به ، فإنْ لم يكـنْ في القرآن ولا عن رسول الله ﷺ ، وكان عن أبي بكر وعمر أخبرَ به ، فإنْ لم يكنْ في شيءٍ من ذلك اجتهدَ رأيَـــه » (أخرجـــه ابـــن ســـعد والدارمي بسند صحيح) .

أخلاقُ ابن عباس مع العـــامَّة : لم يكن ابن عبـــاس موصوفـــاً بالعلم والحلم بين العلماء فقط ، بل كانت تلك حِليتَه بين العلمـــــاء والعامة ، لا يستفزُّه جهلُ الجاهل ، ولا يخرجه عن سَمْتِه ووَقارِه فعلُ السفيه .

فعن ابن بريدة قال : شتم رجلٌ ابنَ عباس رضي الله عنهما ، فقال ابنُ عباس : « إنك لَتَشْتُمُني وفيَّ ثلاثُ خصال : إني لآتي على الآية من كتاب الله تعالى ، فلَوَدِدْتُ أنَّ جميعَ الناس يعلمون منها ما أعلم ، وإني لأسمع بالحاكم من حكام المسلمين يَعْدِلُ في حكمه ، فأفرحُ به ، ولعلّي لا أقاضي إليه أبدا ، وإني لأسمعُ بالغيثِ قد أصاب البلدَ من بلاد المسلمين ، فأفرحُ به ، ومالي به من سائمة » (أخرجه أبو نعيم) .

وفاته : بعد حياةٍ حافلةٍ بجلائل الأعمال ، أَلْقَتْ سفينةُ حياةِ ابنِ عباس رضي الله عنهما مراسيَها بشاطئ الفردوس الأعلى ، وذلك بالطائف سنة ثمان وستين . قال ابنُ عبد البر في الاستيعاب : وكان ابن عباس رضي الله عنهما قد عَمِي فى آخر عمره ، ورُوى عنه أنه رأى رجلاً مع النبي ﷺ ، فسأل النبيَّ ﷺ عنه ، فقال له رسول الله ﷺ : « **أرأيتَه** ؟ » قال : نعم . قال : « **ذلك جبرئيلُ ، أما إنك ستفقدُ بصرك** » فعمى بعد ذلك فى آخر عمره .

وهو القائل فى ذلك فيما روى عنه من وجوه :

إنْ يأخذ اللهُ من عينيَّ نورَهما ... ففى لسانى وقلبى منهما نورُ
قلبي ذكيٌّ وعقلي غيرُ ذى دَخَلٍ ... وفى فمى صارمٌ كالسيف مأثورُ

وصلّى عليه محمد بن علي بن أبي طالب ، المعروف بمحمد ابن الحنفية ، و قال بعد أن دفنه : « اليوم مات ربّانيُّ هذه الأمة » .

وقد شهد الناسُ في جنازته بشارةً وكرامةً له ﷺ . فعن سعيد بن جبير قال : « مات ابنُ عباس ﷺ بالطائف ، فشهدتُ جنازتَه ، فجاء طيرٌ أبيضُ لم يُرَ على خِلْقته ، حتى دخل في نعشه ، ثم لم يُرَ خارجاً منه . فلما دُفِن تُلِيَتْ هذه الآية على شفير القبر ، لا يُرَى مَنْ تلاها ﴿ **يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية . فادخلي في عبادي وادخلي جنتي** ﴾ » (قال الذهبي : هذه قضية متواترة)

- **عدد مروياته** : له في مسند بقي بن مخلد (١٦٦٠) ، وله مما اتفق الشيخان عليه (٧٥) ، و مما انفرد البخاري (١٢٠) ، ومما انفرد به مسلم : (٩) .

رضي الله عن ابن عباس وأرضاه ، وجزاه عن الإسلام و المسلمين خير ما يجزي عباده الصالحين ، و ألحقنا به على خير وجه ، إنه ولي ذلك و القادر عليه .

الوقفة الأولى

الجود و السخاء في رمضان

قبل الحديث عن الجود و السخاء في رمضان ؛ لا بد من الإشارة إلى جُود النَّبي ﷺ ، الذي كان يزيد في رمضان ، حتى لهو أكثرُ فيضاً وعطاءً من الريح المرسلة .

وقد بدأ ابنُ عباس رضي الله عنهما الحديثَ بكون رسول الله ﷺ أجودَ الناس احترازاً من أن يتصور أحد أن جُودَه ﷺ كان لا يبلغ الدرجةَ العُليا من جُود الناس إلا إذا دارسه جبريلُ القرآن .

قال الحافظُ ابنُ حجر في الفتح : « قدَّم ابنُ عباس هذه الجملةَ على ما بعدها ، وإنْ كانت لا تتعلقُ بالقرآن ؛ على سبيل الاحتراس من مفهوم ما بعدها » .

والجود شرعا : إعطاءُ ما ينبغي لمن ينبغي وهو أعمُّ من الصدقة .

ووصْفُ النبي ﷺ بأنه كان أجودَ الناس من الأمور المتواترة المتفق عليها بين سائر من عرفوه ﷺ :

فعن أنس رضي الله عنه قال : « كان النبيُّ ﷺ أحسنَ الناس ، وأشجعَ الناس ، وأجودَ الناس ... » (متفق عليه) .

وعن ابن عمر ﷺ قال : « ما رأيت أحدا أجـــود ولا أنجـــد ولا أشجع ولا أوضأ من رسول الله ﷺ » (أخرجه ابن سعد بسند صحيح)

وسئلت عائشة رضي الله عنها: كيف كان رسول الله ﷺ إذا خـــلا في بيته ؟ قالت : « كان ألين الناس ، وأكرم الناس ، وكان رجلا من رجالكم ، إلا أنه كان ضحاكا بساما » (أخرجه ابن سعد بسند ضعيف)

وعن جابر بن عبد الله ﷺ قال : « ما سئل النبي ﷺ شيئا قـــط ، فقال لا » (متفق عليه) .

وعن أنس ﷺ قال : « ما سئل رسول الله ﷺ على الإسلام شـيئا إلا أعطاه . قال : فجاءه رجل ، فأعطاه غنما بين جبلين ، فرجـع إلى قومه فقال : يا قوم ، أسلموا ، فإن محمدا يعطي عطـــاء لا يخشـــى الفاقة » (أخرجه مسلم) .

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ أن ناسا من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم ثم سألوه فأعطاهم ، حتى نفد ما عنده ، فقال : « **مـــا يكون عندي من خير فلن أدخره عنكم** » (أخرجه البخاري) .

وقال عمر ﷺ : قسم رسول الله ﷺ قسما ، فقلـــت : والله يـــا رسول الله لغير هؤلاء كان أحق به منهم . قال : « **إنهم خـــيروني أن يسألوني بالفحش أو يبخلوني ، فلست بباخل** » (أخرجه مسلم) .

وعنه ﷺ أنه دخلَ على النبي ﷺ ، فقال : يا رسولَ الله ، رأيتُ فلاناً يشكرُ ، يذكرُ أنك أعطيتَه دينارين . فقال ﷺ : « **لكنَّ فلاناً قد أعطيتُه ما بين العشرة إلى المائة فما يشكره ولا يقوله . إنَّ أحدَكم لَيخرجُ من عندي بحاجته مُتأبطَها ، وما هي إلا النار** » قال : قلتُ : يا رسولَ الله ، لمِ تُعْطيهم ؟ قال : « **يَأْبَوْنَ إلا أنْ يسألوني ، ويَأْبى اللهُ لي البُخْل** » (أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم بسند صحيح) .

وفي رواية : « **يسألوني ويريدون أن أبْخَلَ ، ويَأْبى اللهُ عزَّ وجلَّ لي إلا السَّخاء** » (أخرجه ابن أبي الدنيا) .

والأحاديث في بيان ذلك أكثر من أن تُحْصى هنا ، ولكني أذكر هنا **صوراً عمليةً من جوده ﷺ** .

عن سهل بن سعد ﷺ « أن امرأةً جاءت النبيَّ ﷺ ببُرْدةٍ منسوجةٍ فيها حاشيتُها . أتدرون ما البردة ؟ قالوا : الشَّمْلة . قال : نعم . قالت : نسجتُها بيدي ، فجئتُ لأكْسُوَكَها . فأخذها النبيُّ ﷺ محتاجاً إليها ، فخرج إلينا وإنها إزارُه ، فحسَّنها فلانٌ ، فقال : اكْسُنيها ، ما أحسنَها ! قال القومُ : ما أحسنتَ ، لبسها النبيُّ ﷺ محتاجاً إليها ، ثم

سألْتَه وعلمتَ أنه لا يَرُدُّ . قال : إني والله ما سألتُه لألبسَها ، إنما سألتُه لتكونَ كفني . قال سهل : فكانت كفنه » (أخرجه البخاري) .

ومهما جهل السائل عليه فإنه ﷺ كان يعطيه ويعفو عن جهالته .

فعن أبي هريرة ﷺ قال : كنا نقعد مع رسول الله ﷺ في المسجد فإذا قام قمنا ، فقام يوماً وقمنا معه ، حتى لما بلغ وسط المسجد أدركه رجلٌ فجَبَذَ بردائه من ورائه ، وكان رداؤه خشناً ، فحمَّر رقبتَه ، فقال : يا محمد ، احملْ لي على بعيريَّ هذين ، فإنك لا تحملُ من مالك ولا من مال أبيك . فقال رسول الله ﷺ : « **لا وأستغفر الله لا أحمل لك حتى تُقِيدَني مما جَبَذْتَ برقبتي** » فقال الأعرابيُّ : لا والله لا أُقِيدُك . فقال رسول الله ﷺ ذلك ثلاثَ مرات ، كلَّ ذلك يقول : لا والله لا أقيدك . فلما سمعْنا قولَ الأعرابي أقبلْنا إليه سِراعاً ، فالتفت إلينا رسول الله ﷺ فقال : « **عزمت على من سمع كلامي أن لا يبرح مقامه حتى آذن له** » فقال رسول الله ﷺ لرجل من القوم : « **يا فلان ، احملْ له على بعيرٍ شعيراً وعلى بعيرٍ تمراً** » .

ثم قال رسول الله ﷺ : « **انصرفوا** » (أخرجه أبو داود والنسائي ، و في سنده راوٍ مقبول ، ويشهد له ما بعده) .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : « كنتُ أمشي مع النبي ﷺ وعليه بُرْدٌ نَجْرانيٌّ غليظُ الحاشية ، فأدركه أعرابيٌّ ، فجذبه جذبةً شديدةً ، حتى نظرت إلى صفحة عاتق النبي ﷺ قد أثَّرَتْ به حاشيةُ الرداء من شدة جَذْبَتِه ، ثم قال : مُرْ لي من مال الله الذي عندك . فالتفت إليه فضحك ، ثم أمر له بعطاء » (متفق عليه) .

وعن جُبَيْر بن مُطْعِم أنه بينما هو يسير مع رسول الله ﷺ ومعه الناس مَقْفَلَهُ (يعني عند رجوعه) من حُنَيْن فَعَلِقَت الناسُ يسألونَه ، حتى اضطروه إلى سَمُرَة ، فخَطِفَتْ رداءَه ، فوقف النبي ﷺ ، فقال : « **أعطوني ردائي ، لو كان لي عددُ هذه العِضَاه نَعَماً لقَسَمْتُه بينكم ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذوباً ولا جباناً** » (أخرجه البخاري) .

(والسَّمُرة : نوع من شجر البادية له شوك ، والعِضَاه : شجر ذو شوك يكون في البادية ، واحدته : عِضاهة) .

ابتــع علــيَّ :

بلغ من كرمه ﷺ أنه كان لا يرد السائل ، ولو لم يكن عنده ما يعطيه ، فكان يستدين للسائل ، أو يأمره أن يبتاع على حسابه ﷺ .

فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ ، فسأله أن يعطيه ، فقال النبي ﷺ : « **ما عندي شيء ، ولكن ابْتَعْ عَلَيَّ ،**

فإذا جاءني شيءٌ قضيتُه » فقال عمر : يا رسول الله ، قد أعطيتَه ، فما كلّفك اللهُ مالا تقدر عليه . فكره النبي ﷺ قولَ عمر ، فقال رجلٌ من الأنصار : يا رسول الله ، أنفِقْ ، ولا تَخَفْ من ذي العرش إقلالا . فتبسَّم رسول الله ﷺ ، وعُرِف في وجهه البِشْرُ لقول الأنصاري ثم قال : « **بهذا أُمرت** » (أخرجه الترمذي في الشمائل) .

حبهم له ﷺ كان أثراً من آثار جوده ﷺ :

لقد كان لجوده ﷺ الواسع أكبرُ الأثر في تأليف قلوب ألدِّ أعدائه وأشدِّ الناس بغضاً له .

فعن ابن شهاب الزهري ، قال : غزا رسول الله ﷺ غزوةَ الفتح فتحَ مكة ، ثم خرج رسول الله ﷺ بمن معه من المسلمين ، فاقتتلوا بحنين ، فنصر الله دينه والمسلمين ، وأعطى رسول الله ﷺ يومئذٍ صفوانَ بنَ أُمَيَّة مائةً من النعم ثم مائةً ثم مائةً . قال الزهري : حدثني سعيد بن المسيب أن صفوان قال : « والله لقد أعطاني رسولُ الله ﷺ ما أعطاني وإنه لأبغضُ الناس إليَّ ، فما بَرِح يعطيني حتى إنه لأحَبُّ الناس إليّ » (أخرجه مسلم) .

وعن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ ممن شهد معه حنيناً قال : إني

والله لأسيرُ إلى جَنْب رسول الله ﷺ على ناقةٍ لي ، وفي رجلي نعلٌ لي غليظةٌ ، إذْ زحمتْ ناقتي ناقةَ رسول الله ﷺ ، ويقع حرفُ نعلي على ساقِ رسول الله ﷺ فأوجعه . قال : فقرع قدمي في السوط ، **وقال** : « **أوجعتَني ، فأخِّرْ عني** » قال : فانصرفتُ .

فلما كان من الغد إذا رسول الله ﷺ يلتمسني . قال : **قلت** : هذا والله لما كنتُ أصبتُ من رِجْل رسول الله ﷺ بالأمس .

قال : فجئتُه وأنا أتوقع ، فقال لي : « **إنك قد كنتَ أصبتَ رجلي أمس بنعلك فأوجعتَني ، فقرعتُ قدمَك بالسوط ، فدعوتُك لأعوِّضَك** » قال : فأعطاني رسول الله ﷺ ثمانين نعجةً بالضربة التي ضربني (أخرجه ابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق و الطبري في التاريخ بسند صحيح) .

بهذا الجود الكبير ملك النبيُّ ﷺ قلوبَ الناس ، واستهوى أفئدتَهم ، فلم ترَ الدنيا في رحلتها الطويلة بشراً يحبه مَنْ عرفه كما أحبه أصحابهﷺ .

وقد كانت الدنيا في نظره ﷺ أهونَ من أن يلتفتَ إليها ، أو يحضَّ عليها ، فما هي إلا لعاعةٌ يستهوي بها الطامعين ويردُّ بها الشاردين إلى طريق الله رب العالمين ، وانظر إن شئت إلى ما فعله

بغنائم حنين ، وما قاله للأنصار الذين ظنوا أنه أعطى قريشاً وغيرهم من حديثي العهد وتركهم مع سابقة جهادهم ، و لم يدركوا مقصده ﷺ الكبير في ذلك :

عن أنس بن مالك ﷺ أن ناساً من الأنصار قالوا لرسول ﷺ حين أفاء الله على رسوله ﷺ من أموال هوازن ما أفاء فطفق يعطي رجالاً من قريش المائةَ من الإبل ، فقالوا : يغفرُ الله لرسول الله ﷺ ، يعطي قريشاً ويَدَعُنا وسيوفُنا تقطرُ من دمائهم ! قال أنس : فحُدِّث رسولُ الله ﷺ بمقالتهم ، فأرسل إلى الأنصار فجمعهم في قُبَّةٍ من أَدَم ، و لم يدْعُ معهم أحداً غيرَهم ، فلما اجتمعوا جاءهم رسول الله ﷺ فقال : « **ما كان حديثٌ بلغني عنكم ؟** » قال له فقهاؤهم : أما ذوو آرائنا يا رسول الله فلم يقولوا شيئاً ، وأما أُناسٌ منا حديثةٌ أسنانُهم فقالوا : يغفر الله لرسول الله ﷺ ، يعطي قريشاً ويترك الأنصارَ وسيوفُنا تقطُرُ من دمائهم ! فقال رسول الله ﷺ : « **إني أعطي رجالاً حديثٌ عهدُهم بكفر . أما ترضَوْنَ أن يذهب الناسُ بالأموال وترجعوا إلى رحالكم برسول الله ﷺ ؟ فوالله ما تنقلبون به خيرٌ مما ينقلبون به** » . قالوا : بلى يا رسول الله ، قد رضينا . فقال لهم : « **إنكم سترون**

بعدي أَثَرَةً شديدةً ، فاصبروا حتى تلقوا الله تعالى ورسولهﷺ على الحوض » . قال أنس : فلم نصبر (متفق عليه) .

ولا عليه ﷺبعد أن يفرِّق الأموالَ كلَّها يميناً وشمالاً أن يبيتَ جائعاً ، أو يموتَ مرهونةً درعُه في آصُعٍ من شعيرٍ أخذها من يهودي ولم يكن يملك ثمنها :

فعن عائشة رضي الله عنها قالت : « توفي رسول الله ﷺ **ودرعُه** مرهونةٌ عند يهودي بثلاثين صاعاً من شعير » (أخرجه البخاري) .

وفي رواية « أن النبي ﷺ اشترى طعاما من يهودي إلى أجل ، ورهنه درعاً من حديد » (متفق عليه) .

وقد كان ثمن هذا الشعير ديناراً ، لكن لم يكن النبيُّ ﷺ يومئذ يملك ديناراً، فعن أنس ﷺ قال : « رهن رسول الله ﷺ درعاً له عند يهوديٍّ بدينار ، فما وجد ما يفتكُّها به حتى مات » (أخرجه ابن حبان)

وعنه ﷺ : أنه مشى إلى النبي ﷺ بخبز شعيرٍ وإهالة سَنِخَة (أي بشحم مُذاب متغيرِ الرائحة) ، ولقد رهن النبيُّ ﷺ درعاً له بالمدينة عند يهوديٍّ ، وأخذ منه شعيراً لأهله . ولقد سمعتُه يقول : « **ما أمسى عند آل محمدٍﷺ صاعُ بُرٍّ ولا صاعُ حَبٍّ** » وإنَّ عنده لتسع نسوة . (أخرجه البخاري) .

هذه والله العظمة ، وذلك والله الجود ! يعطي المئات من الأبعرة ويرهن درعه في دينار ويموت أن يجد فكاك رهنه ! فيا للعجب ! ويا للروعة ! .

الجود من أخلاق المؤمنين :

لا غَرْوَ إن كان النبي ﷺ قد بلغ هذه الغاية القصوى في الكرم ؛ أن يأمر أتباعه بذلك ، وأن يعتبر الإيمان والسخاء قرينان ، وأن البخل والشح يتنافى مع حقيقة الإيمان :

لا يجتمع البخل مع الإيمان :

عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « **خصلتان لا تجتمعان في مؤمن : البخلُ وسوءُ الخلق** » (أخرجه الترمذي والبخاري في الأدب وفيه ضعيف لكنه يتقوى بما بعده) .

فلا مكان في قلب المؤمن للبخل أو الشح ، الذي أهلك السابقين من الأمم ، إذ لا يجتمع الشح مع الإيمان أبداً . كما لا تجتمع التضحية بالنفس في سبيل الله واستنشاق غبار المعركة مع دخان جهنم إن شاء الله .

فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺقال : « **لا يجتمع غبارٌ في سبيل الله ودخانُ جهنم في وجه رجلٍ أبداً ، ولا يجتمع الشحُ والإيمانُ في**

قلب – في رواية : **في جوف – عبد أبدا** » (أخرجه النسائي والبخاري في الأدب وأحمد وصححه ابن حبان والحاكم) .

قال السندي في حاشيته على النسائي في قوله « **ولا يجتمع الشح والإيمان** » : أي لا ينبغي للمؤمن أن يجمع بينهما ، إذ الشح أبعد شيء من الإيمان .

أو المراد بالإيمان كماله . أو المراد أنه قلما يجتمع الشح والإيمان ، واعتبر ذلك بمنزلة العدم ، وأخبر بأنهما لا يجتمعان .

ويؤيد الوجهين الأخيرين ما جاء في رواية « **لا يجمع الله تعالى الإيمان والشح في قلب مسلم** » .



الوقـــفة الثانية

أثـــــر رمضان في جوده ﷺ

عن أنس قال : سئل النبي ﷺ أي الصوم أفضل بعد رمضــــان ؟ فقال : « **شعبان لتعظيم رمضان** » قيل : فأي الصدقة أفضل ؟ قـال : « **صدقة في رمضان** » (أخرجه الترمذي وقال : غريب) .

وقد أوضح ابن عباس ﷺ في حديث الباب أنـــه ﷺ كـــان في رمضان أجود بالخير من الريح المرسلة .

وفي رواية عنه قال : « كان رسول الله ﷺ إذا دخل شهر رمضـان أطلق كلَّ أسير ، وأعطى كلَّ سائل ، والله لرسول الله ﷺ كان أجود بالخير من الريح الهابة » (أخرجه ابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق) .

قال ابن حجر رحمه الله في الفتح : « يعني أنه في الإسراع بـالجود أسرعُ من الريح ، وعبر بالمرسلة إشارة إلى دوام هبوبها بالرحمة ، وإلى عموم النفع بجوده كما تعم الريحُ المرسلةُ جميعَ ما تهب عليه ، ووقـــع عند أحمد في آخر هذا الحديث : « لا يُسْأَل شيئاً إلا أعطاه » وثبتت هذه الزيادة في الصحيح من حديث جابر : « ما سئل رســـول الله ﷺ شيئا فقال لا » .

وقال أيضا : « قال الزين بن المنير : وجه التشبيه بين أجوديته ﷺ بالخير وبين أجودية الريح المرسلة : أن المراد بالريح ريحُ الرحمة التي يرسلها الله تعالى لإنزال الغيث العام ، الذي يكون سبباً لإصابة الأرض الميتة وغير الميتة ، أي فيعم خيرُه وبرُّه مَنْ هو بصفة الفقر والحاجة ، ومن هو بصفة الغني والكفاية ، أكثرَ مما يعم الغيثُ الناشئة عن الريح المرسلة ﷺ » .

ولكن هل كان هذا الجود نتيجة لقاء جبريل ، أو نتيجة حلول رمضان ، أو نتيجة عرض القرآن ؟

في بعض الروايات ربطٌ بين عرض القرآن وبين هذا السخاء الواسع ، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « كان النبي ﷺ يعرض الكتاب على جبريل عليه السلام كل رمضان ، فإذا أصبح رسول الله ﷺ من ليلته التي يعرض فيها أصبح وهو أجود من الريح المرسلة ، لا يُسْأل شيئاً إلا أعطاه » (أخرجه ابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق وابن سعد في الطبقات والبيهقي في الشعب).

وجاء عن عائشة رضي الله عنها أن قرب عهده بالمدارسة مع جبريل كان هو المؤثرَ في حصول هذا الكرم الفائق ، فعن عائشة رضي الله عنها قالت : « ما لعن رسول الله ﷺ من لعنة تذكر ، كان

إذا كان قريبَ عهدٍ بجبريل عليه السلام يدارسه كان أجودَ بالخير من الريح المرسلة » (أخرجه النسائي) .

وفي رواية : « وكان إذا أحدث العهد بجبريل يدارسه كان أجود الناس بالخير من الريح المرسلة » (أخرجه الحاكم وقال : صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه بهذه السياقة) .

أقول : والأقرب أن يقال : إن مجموع تلك الأمور الكريمة هو سر هذا الجود الرائع .

قال ابن حجر في الفتح : « قوله : فيدارسه القرآن ، قيل : الحكمة فيه أن مدارسة القرآن تجدد له العهد بمزيد غنى النفس والغنى سبب الجود .

وأيضا فرمضان موسم الخيرات ؛ لأن نعم الله على عباده فيه زائدة على غيره فكان النبي ﷺ يُؤْثر متابعة سنة الله في عباده .

فبمجموع ما ذكر من الوقت والمنزول به والنازل والمذاكرة حصل المزيد في الجود ، والعلم عند الله تعالى » .

وقال السندي في حاشيته على النسائي : « قيل : يحتمل أن يكون زيادة الجود بمجرد لقاء جبريل ، أو بمدارسة آيات القرآن ؛ لما فيه من الحث على مكارم الأخلاق ، والثاني أوجه ، كيف والنبي ﷺ

على مذهب أهل الحق أفضل من جبريل فما جـــالس الأفضـــل إلا المفضول .

قلت (القائل هو السندي) : قراءة النبي ﷺ القرآن في صلاة الليـــل وغيرها كانت دائمة .

ويمكن أن يكون لنزول جبريل عن الله تعالى كل ليلة تأثير .

أو يقال : يمكن أن تكون مكارم الأخلاق كالجود وغــــيره في الملائكة أتم ؛ لكونها جبلية ، وهذا لا ينافي أفضلية الأنبيـــاء عليـــهم الصلاة والسلام ، باعتبار كثرة الثواب على الأعمال .

أو يقال : إن زيادة الجود كان بمجموع اللقاء والمدارسة .

أو يقال : إنه ﷺ كان يختار الإكثار في الجود في رمضان لفضلـــه ، أو لشكر نزول جبريل عليه كل ليلة ، فاتفق مقارنة ذلك بـــنزول جبريل . والله تعالى أعلم » .

الوقفة الثـالثة

من صور الجود عند السلف الصالح

هذه بعض صور من جود السلف الصالح الذين جعلوا رسول الله ﷺ أسوتهم وقدوتهم فاتبعوه في جوده وسخائه :

من جود أبي بكر الصديق رضي الله عنه :

لا يذكر الإنفاق والسخاء إلا ويذكر أبو بكـر الصديـق رضي الله عنه ، فهو الذي أنفق ماله كله في سبيل الله وأبقى لأولاده الله ورسوله .

وها نحن نرى موقفه يوم هاجر مع رسول الله ﷺ يحمل معه مالـه كله ، ولا يدع منه شيئا لأهله ، فعن أسماء بنت أبي بكر رضـي الله عنها قالت : « لما خرج رسول الله ﷺ وخرج أبو بكر رضي الله عنه معـه ؛ احتمل أبو بكر ماله كله ، ومعه خمسة آلاف درهم أو سـتة آلاف ، فانطلق بها معه .

قالت : فدخل علينا جدي أبو قحافة وقد ذهب بصره ، فقـال : إني لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه . قالت : قلت : يا أبت ، إنـه ترك لنا خيرا كثيرا .

قالت : فأخذتُ أحجارا فوضعتُها في كُوَّةِ البيت ، الذي كان أبي يضع ماله فيها ، ثم وضعتُ عليها ثوباً ، ثم أخذتُ بيده ، فقلت : يـا أبتِ ، ضع يدك على هذا المال . قالت : فوضع يده عليه ، فقال : لا بأس ، إن كان ترك لكم هذا فقد أحسن ، وفي هذا بلاغ لكـم . ولا والله ما ترك لنا شيئاً ، ولكني أردتُ أن أسكِّن الشـيخ بذلـك » .
(أخرجه ابن إسحاق بسند صحيح ، وعنه أحمد والطبراني وصححه الحـاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي) .

وإنما قال والده أبو قحافة ما قال ؛ لما علمـه مـن سـخاء أبي بكر ﷺ وكثرة عطائه في سبيل الله وإعتاقه رقاب الفقراء من العبيـد المسلمين ، وقد حاول أن يثنيه مرة عن هذا العطـاء الكبـير فلـم يستجب له أبو بكر ﷺ ، فعن عامر بن عبد الله بن الزبير عن بعـض أهله قال : « قال أبو قحافة لابنه أبي بكر ﷺ : يا بني إني أراك تعتـق رقاباً ضعافاً ، فلو أنك إذ فعلت ما فعلت أعتقت رجـالاً جلـداء يمنعونك ويقومون دونك . قال : فقال أبو بكر ﷺ : يا أبه ، إنما أريد ما أريد . قال : فيتحدث ما نزلت هؤلاء الآيات إلا فيه وفيما قـال لأبيه **﴿فأما من أعطى واتقى . وصدق بالحسنى ﴾** إلى آخر السورة »
(أخرجه ابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق والطبري في التفسير) .

من جود عثمان بن عفان ﷺ :

عن عبد الرحمن بن سمرة ﷺ قال : جاء عثمـــان إلى النـــبي ﷺ بألف دينار في كمه حين جهَّز جيش العسرة فينثُرُها في حجره . قـــال عبد الرحمن : فرأيت النبي ﷺ يقلِّبُها في حجره ، ويقول : « **ما ضـــرَّ عثمانَ ما عمل بعد اليوم** » مرتين (أخرجه أحمد والترمذي وقال : حسن غريب) .

وعن عبد الرحمن بن خُبَاب قال : شهدت النبيﷺ وهو يحـــث على جيش العُسْرة ، فقام عثمان بن عفانﷺ ، فقال : يا رســـول الله عليَّ مائةُ بعيرٍ بأَحْلاسها وأقتابها في سبيل الله . ثم حضَّ على الجيـــش فقام عثمان بن عفانﷺ فقال :يا رسول الله ، علـــيَّ مائتـــا بعـــيرٍ بأحْلاسها وأقتابها في سبيل الله . ثم حضَّ على الجيش ، فقام عثمـــان ابن عفانﷺ فقال : يا رسول الله ، لله عليَّ ثلاثُمائة بعيرٍ بأحْلاســـها وأقتابها في سبيل الله . فأنا رأيت رسول الله ﷺ يترل عن المنبر ، وهـــو يقول : « **ما على عثمان ما عمل بعد هذه ، ما على عثمان ما عمل بعد هذه** » (أخرجه أحمد والترمذي وقال : غريب) .

من جود طلحة بن عبيد الله ﷺ :

طلحة أحد العشرة المبشرين بالجنة ، سماه النبي ﷺ طلحة الخير ، وطلحة الجود ، وطلحة الفياض ؛ لما ظهر من جوده ﷺ ، فعنه ﷺ قال : « كان رسول الله ﷺ إذا رآني قال : « **سلفي في الدنيا والآخرة** » ، وسماني رسول الله ﷺ طلحة الخير ، وفي غزوة ذات العُشَيْرة : طلحة الفيَّاض ، ويوم حنين : طلحة الجود ، وقال: « **من أحب أن ينظر إلى شهيد يمشي على وجه الأرض فلينظر إلى طلحة**»

وعن عمر موسى بن طلحة أن طلحة بن عبيد الله ﷺ نحر جَزُوراً وحفر بئراً يوم ذي قَرَد ، فأطعمهم وسقاهم ، فقال رسول الله ﷺ : « **أنت طلحة الفياض** »

وفي رواية : أن طلحة اشترى بئراً ، فتصدق بها ، ونحر جزورا فأطعمهم ، فقال رسول الله ﷺ : « **يا طلحة أنت الفياض** » قال : فسمي طلحة الفياض (أخرج هذه الروايات : ابن أبي عاصم والطبراني والحاكم) .

من جود حكيم بن حزام ﷺ :

قال حكيم بن حزام ﷺ : « ما أصبحتُ صباحاً قطُّ فرأيتُ بفنائي طالبَ حاجةٍ قد ضاق بها ذَرْعاً فقضيتُها إلا كانت من النعم

التي أحمد الله عليها ، ولا أصبحتُ صباحاً لم أرَ بفنائي طالبَ حاجةٍ إلا كان ذلك من المصائب التي أسأل الله عز وجل الأجرَ عليها »
(أخرجه ابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق) .

من جود عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ﷺ :

عُرف عبد الله بن جعفر الطيار ﷺ بالجود ، حتى ضُرب به المثل، وسارت الركبان بذكر مآثره ، ولا غَرْو فهو ابن جعفر الذي لقَّبه النبي ﷺ بأبي المساكين ، وهو سليل بيت العز والشرف ، وهاك بعضَ مآثره :

قال الشعبي : كان لعبد الله بن جعفر على رجل من أهل المدينة خمسون ألفا ، فاستعان عليه بعبيد الله بن عباس في ذلك ، فقال : قد حططتُ عنه شطرَها ، وأخرته بالشطر الآخر إلى ميسوره . قال : فجزاه عبيدُ الله خيراً وانصرف ، فأتبعه ابنُ جعفر رسولاً : إني قد طَيَّبْتُ له النصفَ الآخر .

وعن شهر بن حوشب : أن رجلاً أتى عبد الله بن جعفر فسأله وبين يديه جارية تعاطيه بعض حوائجه ، فقال عبد الله للسائل : خذ بيدها ، فهي لك . فقالت له الجارية : أمتَّني يا سيدي . قال : ويحك! وكيف ذاك ؟ قالت : وهَبْتَني لرجلٍ بلغتْ به الحاجةُ إلى

المسألة . فقال له عبد الله بن جعفر : بِعْنيها إن شئت . فقال له الرجل : خذها أصلحك الله بما أحببتَ . قال : إنما اشتريتُها بمائة دينار ، فلك مائتا دينار . قال : فهي لك أصلحك الله . قال : فأعطاه عبد الله مائتي دينار وقال : إذا نفِذَتْ فعُد إليّ . قالت له الجارية : يا سيدي عظُمَتْ مؤنتي عليك . فقال عبد الله : حرمتُك أعظمُ من مؤنتك .

وكان عبد الله بن جعفر إذا أتاه الرجل يسأله أعطاه ، فإن لم يكن عنده قال : اذهب فخذ عليَّ إلى العطاء ، أو إلى الجذاذ وأْتِني بهم أضمنْ لهم . (أخرج هذه الآثار ابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق) .

جود الحسن بن علي ﷺ :

أختم هذه الباقة الطيبة بهذه المأثرة الكريمة من سليل بيت النبوة الحسن بن علي بن أبي طالب ﷺ فقد دخل عليه نفرٌ من أهل الكوفة وهو يأكل طعاماً ، فسلموا عليه وقعدوا ، فقال لهم الحسن : الطعامُ أيسرُ من أن يُقْسِم عليه الناسُ ، فإذا دخلتم على رجل منزله فقرَّب طعامه فكلوا من طعامه ، ولا تنتظروا أن يقول لكم هلموا ، فإنما يوضع الطعام ليؤكل . فتقدم القوم فأكلوا ، ثم سألوه حاجتهم ، فقضاها لهم (أخرجه ابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق) .

الوقـــفة الرابعـــة

القرآن في حياة رسول الله ﷺ والمسلمين

كـــان خلقه القرآن :

عن سعد بن هشام أنه دخل مع حكيم بن أفلح على عائشة رضـي الله عنها ، قال : فقلت : يا أم المؤمنين ، أنبئيني عن خُلُق رسـول الله ﷺ ؟ قالت : ألستَ تقرأ القرآن ؟ قلت : بلى . قالت : فإن خلـق نبي الله ﷺ كان القرآن (أخرجه مسلم والنسائي والبخاري في خلق أفعـال العباد وابن سعد في الطبقات والطبري في التفسير والبيهقي في الشعب) .

وفي رواية قالت : «كان خُلُقُه القرآن ، أما تقرأ **﴿ وإنك لعلـى خُلُقٍ عظيم﴾** » (أخرجه أحمد والطبري في التفسير) .

وروي عن الحسن البصري أنه سألها نفس السـؤال ، فأجـابت بنفس الجواب . (أخرجه أحمد وابن سعد) .

وسألها مسروق بن الأجدع الهمداني نفس السـؤال فأجـابت بنفس الإجابة .

وسألها يزيد بن بَابَنُوس نفس السؤال فقالت : « كـان خلقـه القرآن ، تقرؤون سورة المؤمنين » قالت : « اقرأ قد أفلح المؤمنـون »

قال يزيد : فقرأت﴿ **قد أفلح المؤمنون**﴾ إلى﴿ **لفروجهم حـافظون**﴾ قالت : كان خلق رسول الله ﷺ (أخرجه البخـاري في الأدب المفـرد والبيهقي في الشعب) .

وسألها أبو الدرداء ﷺ نفس السؤال فقالت : « كـان خلقـه القرآن يغضب لغضبه ، ويرضى لرضاه » (أخرجه الطبراني في الأوسـط والبيهقي في الشعب) .

وعن الحسن أن رهطاً من أصحاب النبي ﷺ اجتمعوا فقالوا : لـو أرسلنا إلى أمهات المؤمنين فسألناهن عما نخلوا عليه يعني النبي ﷺ مـن العمل ، لعلنا أن نقتدي به . فأرسلوا إلى هذه ثم هذه ، فجاء الرسول بأمر واحد : « إنكم تسألون عن خلق نبيكم ﷺ ، وخلقه القـرآن ، ورسول الله ﷺ يبيت يصلي وينام ، ويصوم ويفطر ، ويأتي أهله » (أخرجه ابن سعد في الطبقات) .

قال السندي في حاشيته على النسائي : « وكون خلقه القـرآن : هو أنه كان متمسكاً بآدابه وأوامره ونواهيه ومحاسنه ، ويوضحـه أن جميع ما قصَّ الله تعالى في كتابه من مكارم الأخلاق مما قصه من نـبيٍّ أو وليٍّ ، أو حثَّ عليه أو ندَبَ إليه كان ﷺ متخلّقاً به ، وكل مـا نهى الله تعالى عنه فيه ونزَّه كان ﷺ لا يحوم حوله » .

وقال ابن رجب في جامع العلوم والحكم : « يعني أنه كان **يتأدب** بآدابه ، ويتخلق بأخلاقه ، فما مدحه القرآن كان فيه رضاه ، **وما** ذمه القرآن كان فيه سخطه » .

وقال السيوطي في الديباج : « معناه العملُ به ، والوقوفُ **عند** حدوده ، والتأدُّبُ بآدابه ، والاعتبارُ بأمثاله وقصصه ، **وتدبُّره** وحسنُ تلاوته » .

وهكذا ترى من هذه الأخبار والنقول أن النبي ﷺ كان صورةً عمليةً واضحةً لما جاء في القرآن من مبادئ وأخلاق ، وكان أفضلَ نماذج البشر مجانسةً للقرآن الكريم ، وأصلحها قاطبةً لتلقيه وتمثيله والتجاوب معه في السر والعلن ، و﴿ **الله أعلم حيث يجعل رسالته** ﴾ وإن شئتَ فقل كما قال بعض العلماء : كانﷺ قرآناً يمشي بين الناس .

فإذا كان هذا حاله ﷺ مع القرآن في سائر أحواله ، فما ظنك بحاله حين يلقاه جبريل و يعرض كلٌّ منهما على الآخر القرآن ، ويكون ذلك في شهر رمضان ؟!

مدارسة النبي ﷺ وجبريل القرآن في رمضان :

يظهر من حديث ابن عباس ﷺ أن جبريل كان يتعاهد النبي ﷺ في كل سنة ، فيعارضه بما نزل عليه من القرآن من رمضان إلى رمضان ، يعرض كلٌّ منهما على الآخر ، كما هو مفهوم لفظ المدارسة . وجاء في بعض روايات الحديث أنه لما كان العام الذي توفي فيه عارضه به مرتين (رواه ابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق و ابن سعد في الطبقات والبيهقي في الشعب) .

وقال أبو هريرة ﷺ: «كان يعرض على النبي ﷺ القرآن كل عام مرة ، فعرض عليه مرتين في العام الذي قبض فيه ، وكان يعتكف في كل عام عشراً ، فاعتكف عشرين في العام الذي قبض فيه » (أخرجه البخاري والنسائي في الكبرى) .

وإنما كان العرض مرتين في العام الأخير لأن القرآن كان قد اكتمل نزوله إلا قليلاً ، وقد فهم النبي من تكرار العرض أن ذلك علامة أجله ، كما في حديث فاطمة عليها السلام قالت : « أسرَّ إليَّ النبي ﷺ : **إن جبريل كان يعارضني القرآن كل سنةٍ مرةً ، وإنه عارضني العامَ مرتين ، ولا أُراه إلا حضر أجلي** » الحديث (أخرجه البخاري) .

وعلى حسب العرضة الأخيرة وصل إلينا القرآن متواتراً محفوظاً بحفظ الله عز وجل له﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾ .

واجبنا الاستكثارُ من القراءة في شهر رمضان :

ينبغي للمسلم أن يكثر من تعاهد القرآن في هذا الشهر الكريم ، وذلك لأنه شهر القرآن قال الله عز وجل﴿ **شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن**﴾ وقاال﴿ **إنا أنزلناه في ليلة القدر**﴾ .

بل هو الشهر الذي نزلت فيه كتب الله عامة ، فعن واثلة بن الأسقعﷺ أن النبي ﷺ قال : « **أُنزلت صحفُ إبراهيم عليه السلام في أول ليلة من رمضان ، وأُنزلت التوراةُ لست مضين من رمضان ، والإنجيلُ لثلاث عشر خلت من رمضان ، وأُنزل الفرقانُ لأربع وعشرين خلت من رمضان** » يريد به ليلة خمس وعشرين (أخرجه أحمد والطبري في التفسير ، والبيهقي وفي سنده ضعف) .

وكان نزول القرآن في ليلة القدر جملة واحدة إلى سماء الدنيا، ثم نزل به جبريل مفرقا بعد ذلك ، فعن ابن عباسﷺ أنه قال : « أُنزل القرآنُ جملةً واحدةً إلى سماء الدنيا في ليلة القدر ، ثم نزل بعد ذلك في عشرين سنة﴿ **وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا**﴾ (أخرجه البيهقي في الشعب) .

ولما كان الشهر الكريم شهرَ القرآن فقد اهتم الصحابةُ والسلفُ الصالحُ بإحيائه بتلاوة كتاب الله تعالى ، واجتهدوا في ذلك غاية الاجتهاد :

فهذا عبد الله بن مسعود ﷺ « كان يقرأ القرآن من الجمعة إلى الجمعة وفي رمضان يختمه في كل ثلاث »

وهذا منصور بن زاذان يقول حفيده : « كان جدي منصور بن زاذان يختم القرآن في شهر رمضان عشرين وما يسره . قال : وكان لا يسمع منه إلا في وقت لا يصلي فيه » .

وهذا سعد بن إبراهيم الزهري يقول ابنه يعقوب : « كان أبي سعد بن إبراهيم إذا كان ليلة إحدى وعشرين وثلاث وعشرين وخمس وعشرين وسبع وعشرين وتسع وعشرين لم يفطر حتى يختم القرآن ، وكان يختم فيما بين المغرب والعشاء الآخرة » قال يعقوب : كانوا يؤخرون العشاء الآخرة في رمضان تأخيراً شديداً .

أما الإمام محمد بن إسماعيل البخاري صاحب الصحيح فإنه إذا كان أول ليلة من شهر رمضان اجتمع إليه أصحابه ، فيصلي بهم فيقرأ في كل ركعة عشرين آية وكذلك إلى أن يختم القرآن ، وكذلك يقرأ في السحر ما بين النصف إلى الثلث من القرآن فيختم

عند السحر في كل ثلاث ليال ، وكان يختم بالنهار كل يوم ختمــة ، ويكون ختمه عند الإفطار كل ليلة ، ويقول : عند كل ختمة دعـــوة مستجابة . (أخرج هذه الآثار البيهقي في الشعب) .

فوائد عامة من الحديث

في ختام هذه الجولة في رياض هذا الحديث أنقل بعض ما ذكره العلماء فيه من الفوائد على سبيل الاختصار على النحو التالي :

١ – فيه إشارة إلى أن ابتداء نزول القرآن كان في شهر رمضان لأن نزوله إلى السماء الدنيا جملة واحدة كان في رمضان ، كما ثبت من حديث ابن عباس ﷺ .

٢ – في الحديث بيان عظم جوده ﷺ .

٣ – في الحديث استحباب إكثار الجود في رمضان .

٤ – في الحديث الحث على زيادة الجود والخير عند ملاقاة الصالحين وعقب فراقهم للتأثر بلقائهم .

٥ – في الحديث استحباب مدارسة القرآن ، وتقديم ذلك في رمضان على غيره من الأذكار .

٦ – في الحديث جواز إطلاق القرآن على بعضه ، وعلى معظمه لأن في الحديث أن جبريل كان يدارس النبي ﷺ القرآن ، ومعلوم أن أول رمضان من بعد البعثة لم يكن نزل من القرآن إلا بعضه ، ثم كذلك كل رمضان بعده ، إلى رمضان الأخير ، فكان قد

نزل كله ، إلا ما تأخر نزوله بعد رمضان المذكور ، وكان في سنة عشر إلى أن مات النبي ﷺ في ربيع الأول سنة إحدى عشرة ، ومما نزل في تلك المدة قوله تعالى﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم**﴾ فإنها نزلت يوم عرفة والنبي ﷺ بها بالاتفاق . وكأن الذي نزل في تلك الأيام لما كان قليلا بالنسبة لما تقدم اغتفر أمر معارضته ، فيستفاد من ذلك أن القرآن يُطلق على البعض مجازاً ، ومن ثَم لا يحنث من حلف ليقرأنَّ القرآنَ فقرأ بعضه ، إلا إن قصد الجميع .

٧ – في قوله « أجود بالخير من الريح المرسلة » جواز المبالغة في التشبيه ، وجواز تشبيه المعنوي بالمحسوس ؛ ليقرب لفهم سامعه . وذلك أنه أثبت له أولاً وصف الأجودية ، ثم أراد أن يصفه بأزيد من ذلك فشبه جوده بالريح المرسلة ، بل جعله أبلغ في ذلك منها ؛ لأن الريح قد تسكن .

٨ – وفيه الاحتراس ؛ لأن الريح منها العقيم الضارة ، ومنها المبشرة بالخير ، فوصفها بالمرسلة ليعين الثانية ، وأشار إلى قوله تعالى﴿ **وهو الذي يرسل الرياح بشرا**﴾ ﴿**والله الذي أرسل الرياح**﴾ ونحو ذلك ، فالريح المرسلة تستمر مدة إرسالها وكذا كان عمله ﷺ في رمضان ديمةً لا ينقطع .

٩ – وفيه استعمال أفعل التفضيل في الإسناد الحقيقي والمجازي ؛ لأن الجود من النبي ﷺ حقيقة ، ومن الريح مجاز ، فكأنه استعار للريح جودا ، باعتبار مجيئها بالخير ، فأنزلها منزلة من جاد .

١٠ – في تقديم معمول أجود على المفضل عليه نكتة لطيفة ، وهي أنه لو أخره لظن تعلقه بالمرسلة ، وهذا وإن كان لا يتغير به المعنى المراد بالوصف من الأجودية ؛ إلا أنه تفوت فيه المبالغة ، لأن المراد وصفه بزيادة الأجودية على الريح المرسلة مطلقا .

١١ – في الحديث تعظيم شهر رمضان لاختصاصه بابتداء نزول القرآن فيه، ثم معارضته ما نزل منه فيه .

ويلزم من ذلك كثرة نزول جبريل فيه ، وفي كثرة نزوله من توارد الخيرات والبركات مالا يحصى

١٢ – يستفاد منه أن فضل الزمان إنما يحصل بزيادة العبادة .

١٣ – في الحديث أن مداومة التلاوة توجب زيادة الخير .

١٤ – في الحديث استحباب تكثير العبادة في آخر العمر .

١٥ – في الحديث مذاكرة الفاضل بالخير والعلم ، وإن كان هو لا يخفى عليه ذلك ؛ لزيادة التذكرة والاتعاظ .

١٦ – في الحديث أن ليل رمضان أفضل من نهاره .

١٧ – في الحديث أن المقصود من التلاوة الحضور والفهم ؛ لأن

الليل مظنة ذلك ، لما في النهار من الشواغل والعـــوارض الدنيويـــة والدينية .

ويحتمل أنه ﷺ كان يقسم ما نزل من القرآن في كل سنة علـــى ليالي رمضان أجزاء ، فيقرأ كل ليلة جزءا في جـــزء مـــن الليلـــة ، والسبب في ذلك ما كان يشتغل به في كل ليلة من سوى ذلك مـــن تهجد بالصلاة ، ومن راحة بدن ، ومن تعاهد أهل ، ولعله كان يعيد ذلك الجزء مرارا بحسب تعـــدد الحـــروف المـــأذون في قراءتهـــا ، ولتستوعب بركة القرآن جميع الشهر . ولولا التصريح بأنـــه كـــان يعرضه مرة واحدة وفي السنة الأخيرة عرضه مرتين لجاز أنـــه كـــان يعرض جميع ما نزل عليه كل ليلة ، ثم يعيده في بقية الليالي .

١٨ – في الحديث زيارة الصلحاء وأهل الخير ، وتكرار ذلـــك إذا كان المزور لا يكرهه .

نسأل الله العلي العظيم بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يجعلنا من الأسخياء الكرماء ، وأن يجعلنا ممن يقومون هذا الشهر بالقرآن إيمانـــا واحتسابا ، وأن يعتق في هذا الشهر رقابنا ورقاب آبائنـــا وأمـــهاتنا وأبنائنا وبناتنا وإخواننا وأخواتنا ، وسائر أحبابنا وجميع المسلمين من النار ، إنه ولي ذلك والقادر عليه ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥
في رياض الصوم	٩
ترجمة راوي الحديث	١٠
معاني المفردات	١٩
الوقفة الأولى: كل عمل ابن آدم له إلا الصيام	٢١
الوقفة الثانية: الصيام جنة	٣٣
الوقفة الثالثة: إني صائم	٤٧
الوقفة الرابعة: خلوف فم الصائم أطيب من المسك	٥٣
الوقفة الخامسة: للصائم فرحتان	٦٥
الإنفاق والقرآن في رمضان	٧٣
ترجمة راوى الحديث	٧٤
الوقفة الأولى: الجود والسخاء فى رمضان	٨٧
الوقفة الثانية: أثر رمضان في جوده ﷺ	٩٩
الوقفة الثالثة: من صور الجود عند السلف الصالح	١٠٣
الوقفة الرابعة: القرآن في حياة رسول الله ﷺ والمسلمين	١٠٩
فوائد عامة من الحديث	١١٦